

دراسات تاريخية



الدكتور عماد الدين خليل



(٥)

دراسات تاريخية

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دراســـــات تاريخيــة



د. عماد الدين خليل





تقديم

تعتمد الدراسة التاريخية طريقتين للعرض.. تقوم إحداهما على اختيار مسألة واحدةٍ استعراضاً ومناقشةً وتحليلاً لكي تأخذ مساحة كتاب بكامله.. وتقوم الأخرى على طرح عدد من القضايا موزعة على مساحات من التأريخ الإسلامي ممتدة في الزمان والمكان، كما يشهد القارئ في هذا الكتاب، وهو الثاني في هذا السبيل بعد كتاب (في التأريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل)..

أرجو أن أكون قد وُفِّقت في ذلك وأنا أتناول (مقاومة المدن الإسلامية للغزاة) حيناً، و(المحاولات الانقلابية في تأريخنا) حيناً آخر، و(شيء عن جاهلية العرب) حيناً ثالثاً، و(فلسطين في الأدب الجغرافي العربي) حيناً رابعاً.. وأبحاث أخرى تناولت دراسة بلدانية، وواقعة عين جالوت ومعطيات المستشرقين إزاء السيرة..

ويظل التاريخ الإسلامي حقلاً خصباً للكثير من الدراسات والأبحاث..

ومن الله وحده التوفيق..

الموصل / عماد الدين خليل


@Ahmedyassin90



مقاومة المدن الإسلامية

للغزاة


@Ahmedyassin90

تمهيد

تمثل مقاومة المدن الإسلامية للغزاة إحدى الحلقات المهمة والمثيرة في تاريخنا الإسلامي، حيث يلتقي الثبات على العقيدة والإيمان الفعال والتخطيط المدروس والقدرة على الاستجابة للتحديات بالتردد والخوف والخيانة والنكوص، على صعيدٍ واحد، وحيث يتحرك المؤمنون بعدالة قضيتهم كما أراد لهم الله ورسوله أن يتحركوا لمجابهة الغزاة وتثبيت كلمة الله في الأرض.. إنها عرض مكثف مترع بالقيم والدلالات.. فهي على المستوى الحضاري صراع الحق ضد الباطل، والنور ضد الظلام، والتحضُّر ضد التخلف، والإيمان ضد الكفر، والإسلام ضد الجاهلية.. وهي على المستوى العسكري ـ السياسي، والاستراتيجي عموماً، تغيير خطير لخرائط الصراع، وتوزيع جديد لمراكز القوى، وقلب للموازين كان يؤول في كثير من الأحيان إلى تحقيق نتائج حاسمة لصالح الوجود الإسلامي..

وكان رسول الله ﷺ يقدر ـ بفقهه العسكري المعروف ـ الحجم الحقيقي لمقاومة المدن، والنتائج الحاسمة التي يمكن أن تتمخض عنها. وهو عندما بلغته أنباء التحرك الوثني لسحق المؤمنين قبيل معركة (أحد)، سعى لأن يجابه الموقف الخطير باعتماد أسلوب (حرب المدن)، وعرض على أصحابه أن يظلُّوا في المدينة ويدعوا قريشاً حيث نزلت، «فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها»، فكأنه ﷺ كان يريد أن يعتمد الخطة التي يسمونها اليوم (حرب الشوارع) أو (الأزقة والبيوت والحارات)، فحيثما كان المهاجمون أكثر عدداً من المدافعين كان الأجدر أن يحتمي هؤلاء داخل مدنهم كي يتمكنوا من إنزال ضرباتهم بالعدو الذي يجد نفسه مضطراً إلى التشتت في أنحاء المدينة التي لا يعرف الكثير من

منعطفاتها وزواياها، هذا فضلاً عن أن قتالاً كهذا سيتيح للنساء والشيوخ والأطفال أن يشاركوا فيه.

لكن المسلمين الذين فاتهم شرف الجهاد في معركة بدر قبل عام واحد، وخاصة الشباب منهم، ألحُّوا بالخروج لمجابهة العدو وقالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا!! وأيدهم في هذا عدد من كبار الصحابة قائلين: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنَّا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت في بدر في ثلاثمئة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا.

وبسبب من الثقة العميقة التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوليها لأصحابه، وتقديراً منه لروحهم الفدائية ورغبتهم الأكيدة في المجابهة، وخوفاً من أن يطول النقاش وتتعرض وحدة الصف المسلم للخطر، وتلبية لنداء الشباب المتحمسين للقتال والشهادة، أسوة بإخوانهم في بدر، أسرع رسول الله ﷺ، فدخل بيته ولبس درعه وحمل سلاحه، وما أن رآه المسلمون الذين ألحُّوا بالخروج حتى ندموا وقالوا: استكرهْنا الرسولَ ﷺ ولم يكن لنا ذلك، وعرضوا عليه أن يعود إلى رأيه الأول، إلَّا أنه أجابهم بالحسم الذي يليق بقيادة الأنبياء عليهم السلام: «ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، فانظروا ما أمرتكم به فافعلوه...»، ومن ثم غادر المدينة على رأس أصحابه لكي يلتقي بالمشركين في (أُحُد) وتكون المعركة التي يعرف تفاصيلها الجميع[١].

أما معركة الخندق التي اعتمدت فيها حتى النهاية خطة (قتال المدينة) الدفاعية فقد كتب عنها الكثير باعتبارها حجر الزاوية في تاريخ المقاومة

(١) انظر بالتفصيل: دراسة في السيرة للمؤلف (ص١٨٧ - ٢٠٤).

الإسلامية الطويل، وفي تغيير مؤشرات الصراع بين الإسلام والجاهلية، ولكونها حققت الكثير من النتائج الحاسمة، وقدمت نموذجاً مؤثراً ومدروساً في صراع المدن ضد الغزاة.

وقد سبق وأن تناولت تفاصيلها السياسية والعسكرية في كتاب (دراسة في السيرة)[١]، فما ثم داع للتكرار، اللهم إلَّا حيث افترضت ضرورات المقارنة ذلك من أجل استكمال الصورة وتقديم عرض أكثر استشرافاً وامتداداً في الزمان والمكان..

فأما الموضوع الذي بين أيدينا فسيعالج مقاومة ثلاث من المدن الإسلامية للغزاة في مراحل تأريخية متباعدة.. **أولاها**: مقاومة حلب للصليبيين، **وثانيتها**: مقاومة الموصل للمغول، أما **ثالثتها**: فستعرض مقاومة مدينة ماردين، في الجزيرة الفراتية، للغزو التيموري الخطير...

وما هي إلا نماذج فحسب.. فكثيرة هي المدن الإسلامية التي وقفت بصمود إزاء الهجمات الخارجية، وتمكَّنت ـ بالأخذ بالأسباب ـ من دحر الغزاة وكسر شوكتهم، أو وقف تدفُّقهم واندفاعهم وعرقلة حركتهم على الأقل، ومن ثم لعبت دورها في تغيير موازين الصراع وخرائطه، مما يمكن أن يكون مجالاً خصباً للكثير من الدراسات والأبحاث[٢].



(١) انظر: (ص ٢٠٩ - ٢١٩) من الكتاب المذكور.

(٢) انظر على سبيل المثال - كذلك -: ما كتبه كل من محمد عبد الله عنان في كتاب (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)، وستانلي لين بول في كتاب (قصة العرب في إسبانية).

حلب تتصدى للصليبيين

تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام، وكان أبرزها وأخطرها ولا ريب حصار عام ٥١٨هـ.

فقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين؛ هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وإنطاكية غرباً على البحر المتوسط، في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين. وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وإنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة..

كانت حلب قد بلغت درجة كبيرة من الضعف منذ أن توفي أميرها رضوان ابن تاج الدولة تتش السلجوقي عام ٥٠٧هـ، وأعقبه في حكمها أبناؤه الضعفاء، وتحكم فيهم أوصياؤهم، وعند مقتل لؤلؤ، غلام رضوان والحاكم الفعلي في حلب، على أيدي الجند سنة ٥١١ هـ، تدهورت الأمور فيها وأصبحت سهلة المنال. فلما خلفه يارقتاش الأرمني هادن «روجر» أمير إنطاكية وبذل له الأموال، وتنازل له عن بعض المواقع كما منحه الحق في استيفاء رسوم محددة على القوافل. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل غدت حلب تعتمد على «روجر» في ردِّ كل من تحدثه نفسه للاستيلاء عليها

من أمراء المسلمين وحكامهم، فكأنها ـ والحالة هذه ـ قد أصبحت في حماية الغزاة.

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوي، أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام ٥١١هـ، وتولَّى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها.. وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام ٥١٦هـ، سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتولِّيه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقال إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها. ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولِّي تمرتاش الحكم، ويقول: «فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك»[١].

وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه

(١) زبدة الحلب: ٢/ ٢٢٠.

من المال. . وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلسه «فأكلا وتشاربا، وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره»[١]. ولم يلبث تمرتاش ـ بعدها ـ أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة. .

وبهذا أتيحت لهؤلاء الفرصة ـ كرة أخرى ـ لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام ٥١٨هـ (حصاراً) من أخطر ما تعرضت له في تأريخ الحروب الصليبية الطويل.

بدأت المحاولة (بخيانة) تقدم بها أحد الأمراء العرب: دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد. ووعد بلدوين أمير إنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: «إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم»[٢]. وتمكن ـ أخيراً ـ من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب[٣].

تقدَّم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان

(١) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٢٢٢، ابن منقذ: الاعتبار، ص ١٠٣، ١٢٠-١٢١.
(٢) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٨،، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٢، ابن خلدون: العبر: ٥/ ١١٢ - ١١٣.
(٣) ابن العديم: زبدة: ٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣، ابن منقذ: الاعتبار، ص ١٠٣، ١٢٠ - ١٢١، ابن الفرات: تأريخ (مخطوط): ٢/ ٨٤ - ٨٥.

(٥١٨هـ)، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة دبيس بن صدقة صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مئة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزلا مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك (خونة) آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب: سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي.. وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها[١]، «ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر»[٢]، فضلاً عن ثلاثمئة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمئة فارس[٣].

بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين، ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم!! وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: «هذا نبيكم محمد!!»، وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمين أبصروا كتابكم!! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه.. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[٤].

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٥ - ٢٢٦، ابن الفرات: المصدر السابق ٢/ ٨٥ - ٨٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٨، خلدون: العبر ٥/ ١٢ - ١١٣.
(٣) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٤) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٥، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (قسم حلب المنشور) ص ٤٥، ابن الشحنة: المنتخب ص ٨٢، ابن الفرات: تأريخ (مخطوط) ٢/ ٨٥.

ولم يكتف الصليبيون بهذا بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرَّس على أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت.. وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى[١].

ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش. وتسلَّل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين ـ قاعدة ديار بكر ـ ليستغيثوا بأميرها علَّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات. وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان قد توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثُّون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة.. المهم أن يصل إلى هناك وأن يكون للمدينة المحاصرة أمير يشار إليه بالبنان[٢].

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٥٥، ابن القسلاني: ذيل ص ٢١٢، أبو الفدا: المختصر ٢/ ٢٤٩، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٢ - ١١٣، ٤٩٠ - ٤٩١، ابن الشحنة: المنتخب ص ٢١٨ - ٢١٩، ابن الفرات: تأريخ (مخطوط) ٢/ ٨٥ - ٨٦.

(٢) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٥٥ - ٢٢٦، ابن الفرات: المصدر السابق ٢/ ٨٥ - ٨٦.

ازدادت الأحوال في حلب سوءاً، وقلَّتِ الأقوات بها وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والمرض، ويحدثنا ابن العديم كيف «كان المرضى يئنون لشدة المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الإفرنج قام المرضى كأنهم نشطوا من عقال، وزحفوا إلى الفرنج وردوهم إلى خيامهم، ثم يعودون إلى مضاجعهم»[١]، وزاد في الأمر سوءاً أن اتبع بعض أمراء حلب سياسة ظالمة تجاه الحلبيين، إذ صادروا أملاكهم وسلطوا الجند عليهم[٢]، ولما طال انتظار المحاصرين لنجدة حسام الدين تمرتاش وظهر منه الوهن والإهمال، كتب أحدهم إلى الوفد يخبره بما آل إليه أمر حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات، فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش، فغضب وقال: «انظروا إلى هؤلاء!! يتجلَّدون عليَّ ويقولون: إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم، ويغررون بي حتى أصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة!!»[٣]، ثم أمر بمراقبة تحركات الوفد حتى لا يغادر أعضاؤه ماردين للاستنجاد بأمير آخر، الأمر الذي قد يزيد مركز حسام الدين ضعفاً ويفقده مدينة حلب نهائياً.. ولكن هؤلاء تمكَّنوا من تدبير وسيلة للهرب إلى الموصل للاتصال بواليها السلجوقي: آق سنقر البرسقي[٤].

كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلَّا الأطباء. ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره، وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتم نصره! فكادت أنفس الحلبيين تزهق[٥].

---

(١) زبدة: ٢/ ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨، ابن الفرات: تأريخ (مخطوط) ٢/ ٨٥ - ٨٦.

(٥) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٨.

عندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: «إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليَّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم». ولم تمضِ ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب. وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد، فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب، وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم ـ مسبقاً ـ تسليم قلعة حلب لنوابه كي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين، فأجابوه إلى طلبه، وما أن استتب الأمر لهؤلاء النواب واطمأن الرجل إلى وجود حمايةٍ أمينة في حال تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوّق حلب[١].

وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة ٥١٨هـ، وما أن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق إلى إنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما

(١) المصدر السابق نفسه: ٢/٢٢٨ - ٢٢٩، ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٣٧ - ٢٣٨، ابن القسلاني: ذيل ص ٢١٢، أبو الفدا: المختصر ٢/٢٤٩، ابن خلدون: العبر ٥/١١٢ - ١١٣، ٣٩٠ - ٤٩١، الغزي: نهر الذهب ٣/٨٦ - ٨٧، ابن الفرات: تاريخ (مخطوط) ٢/٨٨.

اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله. وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدِّمة إلى معسكراتها في حلب، وقال موضحاً خطته هذه: «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم». ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء المصادرات، وعمَّت عدالته الحلبيين جميعاً بعدما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي[(١)].

ولم يكتفِ البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية؛ حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شرِّدوا عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار[(٢)].

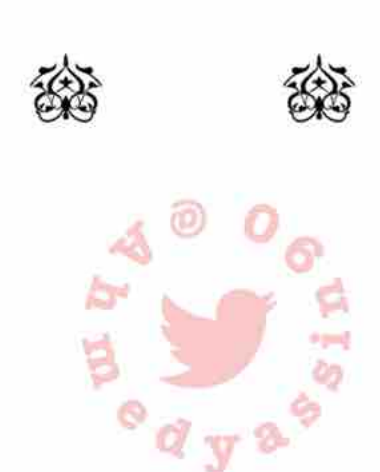
وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلِّص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية، ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠.
(٢) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٢٣٠.

أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة.

يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسيمان: «.. سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك. ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة وإقطاعات متفرقة زادت من ضعفها، وما حدث ـ إذن ـ من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام»[١].



(١) انظر: السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١/ ٣٤٥، ٤٨٥ - ٤٨٦.

الموصل تقاوم المغول

في مطلع عام ٦٦٠هـ يمَّم التتر وجوههم صوب الموصل لإخضاعها لسيطرتهم.. وكانوا يدركون جيداً الأهمية السياسية والعسكرية لهذه المدينة التي تعدُّ قاعدة الجزيرة الفراتية ومفتاح المواصلات بين فارس والعراق والشام والأناضول، فضلاً عن أهميتها الاقتصادية التي أكدها وأشاد بها الرحالة والجغرافيون.. وكان يقود الغزاة القائد التتري صندغون (سنداغونويان: Sandaghoun). وقد انضاف إليه عدد من الأمراء المسلمين بجندهم، أولئك الذين دفعهم إلى خدمة الغزاة الخوف من العقاب الرهيب الذي اعتمده التتر لإخضاع خصومهم، وتفننوا في طرائقه جنباً إلى جنب مع الإغراءات التي كانوا يمَنُّون بها هؤلاء الخصوم وينثرونها بسخاء ذات اليمين وذات الشمال. فهي إذن محبة الدنيا وكراهية الموت، رغم أنها كانت تتمخض في كثيرٍ من الأحيان عن خلاف ذلك تماماً: خسارة الدنيا والآخرة، والإذعان للموت عبر أشد المواقف مذلة وخزياً..

وبالعكس تماماً؛ فإن الرجال الذين أحبوا الموت وكرهوا الدنيا خافهم الموت ودانت لهم الدنيا.. وما كانت واقعة (عين جالوت) بعيدة عن الأذهان، وهي التي لم يمضِ ـ على وقوعها سوى سنة ونصف.. لكنه الوعد الذي يعمي، والوعيد الذي يصم..

لقد زحف مع الغزاة الوثنيين ـ إذن ـ أمراء مسلمون، كان أبرزهم ولا ريب الملك المظفر الأرتقي صاحب ماردين قاعدة ديار بكر في أقصى شمال الجزيرة الفراتية على رأس قواته..

كان يحكم الموصل يومها الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ، وكان لؤلؤ هذا قد انتزع الملك من أحفاد عماد الدين زنكي بعد

أن تولى الوصاية على آخرهم ردحاً من الزمن؛ كان يهيمن فيه على مقدرات الإمارة ويُعِدُّ العدة لتصفية آخر أمير أتابكي لكي ما يلبث أن يغدو حاكم الموصل والجهات الواسعة المحيطة بها، العقود الطوال، ثم يتوفى عام ٦٥٧هـ دون أن يترك فرصة واحدة للتقرب من المغول والتذلل لهم حماية لعرشه.

وابن العبري المؤرخ يقدم صورة طريفة ومحزنة عن سلوك هذا الحاكم (المستميت) على شهوة السلطان، وهو السلوك الذي تكرر وسيتكرر مراراً مع كثير من أمراء المسلمين يومها، وسيغدو هؤلاء لعبة في يد المغول يتسلَّون بها كما يتسلَّى بها اللاعبون بقِطع الشطرنج..

يقول المؤرخ المذكور: لما ملك هولاكو بغداد وأحكم قبضته على مقدراتها، أنفذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ابنه الملك الصالح إسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدةً له، فأظهر هولاكو عبسة له، وقال: أنتم بعد في شك من أمرنا وماطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم، وقدَّمتم رِجْلاً وأخَّرْتم أخرى لتنظروا مَنِ الظافر بصاحبه، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا. قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجباً! كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل، واتخذت اليقين ظناً وقد لاح لك الصبح ولم تستصبح؟!

فلما عاد الصالح إلى الموصل، وبلَّغ أباه ما حمل من الرسالة الزاجرة، أيقن بدر الدين أن المنايا قد كشرت له عن أنيابها، وذلت نفسه وهلع هلعاً شديداً.. فانتبه من غفلته وأخرج جميع ما في خزانته من الأموال واللآلئ والجواهر والثياب، وصادر ذوي الثروة من رعاياه، وأخذ حتى حليَّ حظاياه والدرر من حَلَق أولاده، وسار إلى طاعة هولاكو بهمذان، فأحسن هولاكو قبوله، واحترمه لكبر سنه، ورقَّ له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة، واستأمن إليه وداعبه، وقدَّمه إلى أن أصعده إليه على التخت، وأذن له أن يضع بيده في

أذنيه حلَقَتَين كانتا معه فيهما درتان يتيمتان. وأقام في خدمته أياماً ثم عاد إلى الموصل مسروراً، بل مذعوراً مما شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه[١].

فها هو ذا خليفته وابنه يتعرض للمحنة المحتومة، فهو إما أن ينحني ويذوب، وإما أن يصبر ويتحمل رعْد الغزاة وبرقهم وصواعقهم. وقد اختار الثانية خلافاً لما كان عليه أبوه. ومن أجل أن يتمكن من الصمود سعى إلى تحسين علاقته مع الدولة المملوكية في مصر والشام؛ حيث كانت تمثل مركز المقاومة الإسلامية الأم للهجمة المغولية، سيما بعد انتصارها الحاسم في عين جالوت في أقل من سنتين، وبعد أن تبوأ قيادتها رجل محنك قدير هو الظاهر بيبرس.

يمَّم الملك الصالح وجهه صوب مصر مستصحباً معه عدداً من إخوته وأفراد عائلته، فتلقَّاهم السلطان بالترحاب وبالغ في إكرامهم وعطائهم؛ إذ كان يدرك جيداً أن الجزيرة الفراتية وقاعدتها الموصل تمثل رأس الرمح في المقاومة الإسلامية للغزاة، والامتداد الاستراتيجي لدولة المماليك للضغط على المغول في العراق وبلاد فارس، وقد أكد السلطان الظاهر، عن طريق المنشورات الإدارية التي منحها الصالح وإخوته سلطة هؤلاء على البلاد التي يحكمونها[٢].

لكن الموصل، التي قرر الملك الصالح أن يقفل عائداً إليها بعد أن أمَّن ظهره، وعزز علاقته بالمماليك، كانت قد شهدت سلسلة من الأحداث.. فالمندوب التتري المقيم في الموصل والذي كان بدر الدين لؤلؤ قد رحب به من قبل، لم يرتح لتوجه الملك الصالح إلى مصر بما

---

(١) مختصر تاريخ الدول ص ٤٨٢ - ٤٨٣، وانظر: رشيد الدين: جامع التواريخ مجلد ٢، جزء ١، ص٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) المقريزي: السلوك ١/٢/٤٦٠ - ٤٦١. وانظر: رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/١/٣٢٧.

يحمله من مغزى واضح، وكان من بين من خرجوا من الموصل لتوديع الصالح، يومها، أحد قواده: علم الدين سنجر، فلما رجع هذا القائد إلى المدينة منعه المندوب التتري من دخولها، ولكن سنجر تمكَّن من الاحتيال عليه والتسلُّل إليها مع رجاله خفية، ووجد المندوب التتري نفسه مضطراً للجوء إلى القلعة.. وتلا ذلك قيام سنجر بالإيقاع بالنصارى وكنائسهم وأديرتهم بسبب تحالفهم مع التتر وانتهازهم الفرص للانتقام من المسلمين. وبينما كانت المدينة تشهد هذه الأحداث وصلها الجيش التتري بقيادة صندغون الذي كان قد انتمى إلى النصرانية في فترة سابقة أسوة بالعديد من رجالات التتر، وفرض الحصار عليها، وأخذ يعد العدة لهدم سورها، فلما بلغه أن الملك الصالح قد قفل عائداً من مصر وأنه على مقربة من الموصل يريد الدخول إليها، رفع الحصار عنها وانتحى موضعاً خفياً حتى يمكن الصالح من الدخول ومن ثم يطبق عليه، وما أن دخل الأخير حتى عاد صندغون إلى إحكام الحصار[1].

لم يكن مع الصالح يومها ـ فيما يرويه اليونيني ـ سوى سبعمئة فارس[2]، وربما يكون هذا الرقم مبالغاً فيه باتجاه آخر: التقليل الذي يتعمَّد أن يصوّر الصراع بين طرفين غير متكافئين تماماً لكي تكون الصورة أكثر تأثيراً!! ذلك أن مؤرِّخ المغول رشيد الدين يشير إلى أنه كان في الموصل ـ يومها ـ جيش كثير من الأكراد والتركمان[3].

فرض الغزاة حصارهم على المدينة وشدَّدوا النكير عليها، وأقاموا المتاريس ونصبوا أربعة وعشرين منجنيقاً «فضايقوها أشد مضايقة، ولم يكن

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٩٤ فما بعد، المقريزي: السلوك هامش ٤، ١/٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨ وانظر رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/١/٣٢٧ - ٣٢٨.
(٢) ذيل مرآة الزمان: ١/٤٩٢.
(٣) جامع التواريخ: ٢/١/٣٢٨.

فيها سلاح يقاتلون به ولا قوت يمسك رمق من فيها، وغلا فيها السعر حتى بلغ المكوك بها أربعة وعشرين ديناراً»[١]. ومن أجل أن يحض المقاتلين على المقاومة، وزَّع الملك الصالح عليهم الدراهم والدنانير، وقال: «إن الظاهر بيبرس سيمدنا بالجيش من مصر حينما يعلم بالأمر»[٢].

ولم يجد أمير الموصل بُدّاً من الاستنجاد بالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس، حيث توجَّه أخواه يطلبان المعونة، ويشير المقريزي إلى أن السلطان جرد حملة عسكرية من القاهرة، كما كتب إلى دمشق بخروج عسكرها[٣]، ولكن يبدو أن بُعد الشُّقة وانشغال قائد الحملة: شمس الدين سنقر الرومي بالإغارة على إنطاكية وعدد من المواقع الصليبية شمالي الشام صرف النجدة عن هدفها الرئيسي[٤]، وربما اكتفى السلطان بالحملة التي قادها البرلي من حلب لنجدة الموصل. وقد استنفر الصالح ـ كذلك ـ الأمراء المسلمين هاهنا وهناك، وكان أقربهم الأمير شمس الدين البرلي في حلب، وكان هذا عند حسن الظن؛ إذ ما لبث أن خرج على رأس قواته وتقدَّم شرقاً صوب سنجار الواقعة على الطريق إلى الموصل، فلما علم التتر باقترابه، حيث لم يتبقَّ أمامه سوى ثلث الطريق، عزموا على فك الحصار والهروب.. ولكنها الخيانة ـ مرة أخرى ـ إذ اتفق أن وصل إليهم أمير مسلم يدعى الزين الحافظي كان قد التحق بخدمة هولاكو، وأعلمهم أن القوة التي يقودها البرلي ليست بذات شأن، وأن المصلحة ملاقاة البرلي لئلا يتهم التتر بالعجز فيطمع فيهم الخصوم[٥]!!

---

(١) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٢

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/ ١/ ٣٢٨.

(٣) السلوك: ١/ ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٢/ ٤٢٧.

(٥) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٤.

ارتفعت معنويات الغزاة وعزموا على ملاقاة البرلي، وانطلق قائدهم صندغون على رأس عشرة آلاف فارس صوب سنجار، تاركاً قواته الأخرى على حصار الموصل. ولم يكن مع البرلي في حقيقة الأمر سوى قلة من المقاتلين تمكن من جمعهم بصعوبة: بضع مئات من الفرسان الأتراك والعرب تبلغ ألفاً ومئتين عدداً.. وقد تردد البرلي ـ ومن حقه أن يتردد ـ في مواجهة خصمه الذي يفوقه بكثير، ولكنه اختار أن يخرج إليهم في الرابع عشر من جمادى الآخرة فدارت الدائرة عليه وانهزم جريحاً في رجله، وقتل وأسر من أصحابه عدد كبير.. وقد تمكن من الوصول إلى البيرة على نهر الفرات، ثم غادرها في التاسع عشر من رمضان ميمماً وجهه شطر مصر حيث دخلها بعد أسابيع قلائل، فكرمه السلطان الظاهر بيبرس وأنعم عليه[١].

عاد صندغون بالأسرى إلى الموصل وسعى إلى اعتمادهم ورقة رابحةً في لعبة الحرب النفسية التي أتقنها التتر جيداً، فأدخلهم من ثقوب الأسوار لكي يتَّصلوا بالملك الصالح ويعرفوه بهزيمة البرلي وانكسار عسكره، ويشيروا عليه بالتخلي عن المقاومة وطاعة الغزاة[٢].. ويبدو أن المحاولة أخفقت؛ إما بسبب إخلاص هؤلاء الأسرى وتنفيذهم دوراً مخالفاً تماماً لما طُلب منهم، وإما بسبب عزم الملك الصالح على المقاومة والصمود، ومن ثم استمر القتال حتى مستهلّ شعبان حيث دخل الحصار العنيف شهره السابع، وهي مدة ليست بالقليلة ولم يألفها التتر التي كانت المدن الحصينة تطوى تحت ضرباتهم بيسر وسرعة، الواحدة تلو الأخرى.

ويقدم رشيد الدين (مؤرخ المغول) لمحات عن المقاومة التي أبداها المدافعون، فيقول: «بادر أهل المدينة بالقتال عملاً بقول الصالح، وأطلقوا

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة، المقريزي: السلوك ١/٢/٤٧٥ - ٤٧٦، رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/١/٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) اليونيني: ذيل ١/٤٩٤ - ٤٩٥.

حجارة المنجنيق من كل جانب، وخرجت جماعة الأكراد للقتال، فدامت الحرب الحامية قرابة شهر، وذات يوم تسلَّق الأسوار ثمانون من شجعان المغول فقضى أهل الموصل عليهم جميعاً، ورموا برؤوسهم إلى جيش المغول من أعلى الأبراج، وتشجَّعوا بهذا الانتصار، كما تمكَّنوا من جرح أحد قادة المغول (صدر الدين التبريزي)، فتوجه إلى تبريز بإذن من صندغون حيث التقى بهولاكو وأبلغه بصمود أهل الموصل، فأرسل جيشاً آخر لإمداد صندغون»[١].

وإذ عجز صندغون عن تحقيق هدفه بالقوة لجأ مرة أخرى إلى ما اعتاده التتر كلما حزب بهم الأمر: الكذب وحرب الأعصاب، فطلب إرسال علاء الملك بن الملك الصالح، وأشاع أنه قد وصل إليه كتاب من هولاكو؛ مضمونه: «أن علاء الملك ما له عندنا من ذنب، وقد وهبنا له ذنب أبيه، فسيره إلينا لنصلح أمرك معه»[٢]!!

كان الملك الصالح قد ضعف وعجز، «وغلبت المماليك على رأيه» في اللحظات القاتمة التي تطل عبرها الهزيمة، متحدثة بلسان هذا الأمير أو ذاك ممن يؤثرون السلامة أو يخدعون بها.. ووجد الملك الصالح نفسه مضطراً إلى إخراج ابنه إلى معسكر الأعداء، فلما وصل إليهم احتجزوه اثني عشر يوماً، ظن الملك الصالح أنهم قد سيَّروه خلالها إلى هولاكو علَّه يخفف من تشدُّده وينهي الحصار.. لكن التتر ما لبثوا أن كتبوا إليه بعد أيام يأمروه بتسليم البلد، وإن لم يفعل فلا يلومنَّ إلا نفسه «إذا دخلنا البلد بالسيف وقتلنا من فيه»[٣]. كان قد مضى على القتال ستة أشهر واجتاح الجو حر شديد بحيث عجز الفريقان عن مواصلة الحرب، وما لبث أن عصف بالمدينة

(١) جامع التواريخ: ٢/ ١/ ٣٢٨.
(٢) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٤، ابن العمري: مختصر ص ٤٩٥ - ٤٩٦.
(٣) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٤.

القحط والوباء، فتوجهت حشود الناس إلى الصحراء بسبب الجوع، وما ظنوا أنهم سيكونون طعمة لسيوف المغول الأشد جوعاً[(١)]!!

جمع الصالح أهل البلد والأجناد وشاورهم في الأمر، فأشاروا عليه بالخروج إلى معسكر التتر بعد أن فعل فيهم طول أمد الحصار، والجوع الذي لا يرحم، وترغيب الغزاة وترهيبهم.. قال لهم: إذا خرجت فإنكم تقتلون لا محالة وأقتل بعدكم!! لكنهم صمموا على خروجه..

وفي يوم الجمعة الخامس من شعبان ودع الصالح الناس بعد أداء الصلاة وانطلق إلى معسكر القائد التتري، ملتفاً بالملابس البيضاء!! يصحبه عدد من أمرائه، فلما وصل إلى هناك احتاطوا به ووكلوا عليه ومن معه من يتولى حراستهم.. ثم ما لبث التتر أن أعادوه إلى الموصل ومعه المنشور التتري؛ حيث نادى في الناس بالأمان!! فظهر هؤلاء بعد اختفاء وشرع التتر في تدمير الأسوار[(٢)].

لكن الأمان الذي منحه التتر ما كان سوى السراب الذي لوحوا به لسكان مدينة كان العطش يفتك بها.. لقد فعلوها من قبل مراراً وسيفعلونها من بعد تكراراً.. إنها الخدعة التي تحقق لهم ماعجز السلاح عن تحقيقه، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن حصاراً مترعاً بالخوف والجوع والعناد يتجاوز الأشهر السبعة عدداً يجعل الإنسان يتشبث بأي شيء قد يخرجه مما هو فيه حتى ولو كان خدعة أو وهماً أو سراباً!!

والنتيجة أن يسقى هؤلاء المخدوعون الكأس نفسها التي شربها من قبلهم وسيشربها من بعدهم جماعات المسلمين وأمراؤهم الذين وافقوا على الدخول في اللعبة والإذعان لنهايتها المحزنة..

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/ ١/ ٣٢٩.

(٢) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٤ - ٤٩٥.

يقول اليونيني المؤرخ: «فلما اطمأن الناس واشتروا وباعوا، دخل التتر البلد وأجالوا السيف على من فيه تسعة أيام، وكان دخولهم في اليوم السادس والعشرين من شعبان»[١] عام ٦٦٠هـ (١٢٦٢م)، «وقتلوا في المدينة عالماً لا يحصي عدده إلا الله تعالى»[٢].. «ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية، وهدموا المباني وتركوها بلاقع»[٣]، كما قاموا بأسر عدد من أرباب الحرف والصنائع بحيث لم يبق في الموصل أحد. وبعد مغادرة المغول المدينة خرج ما يقرب من ألف شخص من بين الجبال والمغارات[٤].

ولم ينج علاء الملك بن الملك الصالح رغم أن أباه كان قد لبى طلبهم بإرساله إليهم أيام الحصار، فها هم أولاء.. الذين يعترف مؤرخهم الرسمي (رشيد الدين صاحب جامع التواريخ) بتمرسهم في الغدر، يسوقونه إلى حتفه وفق أشد الطرائق وحشية: شطروه نصفين علقوهما على باب الجسر جنوبي المدينة، لكي ما يلبثوا أن يلحقوا به أباه بعد أيام قلائل من مغادرتهم الموصل في مطلع شوال عائدين إلى ديارهم، لكي يزفوا البشرى إلى هولاكو[٥]. ويذكر رشيد الدين أن مقتل الملك الصالح تم بأمر من هولاكو نفسه بعد وصول الجيش المغولي؛ لأنه كان «غاضباً جداً» عليه، فطلب منهم أن يدهنوا جسمه بسمن الأغنام ثم يلفوه باللبد ويحكموه بالحبال ويلقوا به

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) ابن العبري: مختصر ص ٤٩٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٣٠٠، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٥٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢/ ٤٧٥.
(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٢/ ٤٧٥.
(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ ٢/ ١/ ٣٣٠.
(٥) اليونيني: ذيل ١/ ٤٩٥، ابن العمري: مختصر ص ٤٩٦، ابن العماد: شذرات ٥/ ٣٠٠، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٥٤، المقريزي: السلوك ١/ ٢/ ٤٧٥.

في شمس الصيف القائظ.. فاستحال السمن بعد أسبوع إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس، حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء[١].

وأخيراً.. ماذا بشأن (الزين الحافظي) الذي خان بني جلدته ودينه لمرض في نفسه، وكشف للمغول عن حجم القوة التي قادها البرلي لإنقاذ الموصل؟ وكان السبب وراء المجزرة التي شهدتها المدينة؟

لقد أشربه أسياده المغول الكأس نفسه، ونال جزاءه من جنس عمله، ففي أواخر عام ٦٦٢هـ أحضره هولاكو بين يديه وقال له: أنت قد ثبتت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول، فإنك خدمت صاحب بعلبك طبيباً فخنته واتفقت مع غلمانه على قتله حتى قتل، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به، فلم تلبث أن خنته وباطنت عليه الملك الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر من يده، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر (الأيوبي) ففعل معك من الخير ما فعل حتى جرى عليه ما جرى، ثم انتقلت إليَّ فأحسنت إليك إحساناً لم يخطر ببالك فأخذت تكافئني بالأفعال الرديئة وشرعت في مكاتبة صاحب مصر، فأنت معي في الظاهر، خارجاً عني في الباطن.. وراح هولاكو يعدد له ذنوباً كثيرة من خيانته في الأموال التي كان قد سيره لجبايتها من البلاد، ثم ما لبث أن أمر بقتله وقتل إخوته وأولاده وأقاربه ومن يلوذ به، فكان مجموعهم نحو الخمسين نفراً ضربت أعناقهم صبراً، ولم ينجُ منهم إلا اثنان اختفيا في السوق[٢].

يقول اليونيني معقباً: «إن مخازي الحافظي وخياناته على الإسلام أكثر من أن تحصر، منها: إغراء التتر بالمسلمين وإطماعهم في بلادهم وممالكهم بحيث إن كل دم سفكوه في الشام هو شريكهم فيه.. وبعد اكتساح بغداد

(١) جامع التواريخ ٢/ ١/ ٣٣٠.
(٢) اليونيني: ذيل ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥.

انفرد الحافظي بهولاكو وقال له: بغداد قد أخذتها، والشام بلا ملك، ومتى قصدته أخذته وأنا المساعد فيه، فإن أكثر من بدمشق أهلي وأقاربي، فأعطاه هولاكو سكاكينَ وقال: متى جاءني أحد ومعه سكين من هذه أعلم أنه من أقاربك، وأخذ الحافظي مما سير معه من الهدية لهولاكو شيئاً كثيراً»[١]..

والزين الحافظي هو واحد من عشرات مارسوا الدور نفسه، وذاقوا النهاية ذاتها، وساروا إلى حتفهم بظلفهم.

(١) المصدر السابق نفسه: ٢/٢٣٦ - ٢٣٧.

ماردين تتحدى تيمورلنك

تقع مدينة ماردين في قلب إقليم ديار بكر شمالي الجزيرة الفراتية، وتعد قاعدته الأولى، وقد حكمتها لقرون عديدة أسرة تركمانية تدعى الأسرة الأرتقية، نسبة إلى جدها أرتق بن أكسك الذي برز كقائد عسكري شهير في بدايات العصر السلجوقي، والذي تمكن أبناؤه من بعده أن ينشئوا كياناً سياسياً في ديار بكر، ويلعبوا دوراً خطيراً في مقاومة الغزو الصليبي، وها هم أحفادهم في ماردين يتعرضون لتحديات الهجوم المغولي بقيادة تيمورلنك والذي لم يكن بأقلَّ عنفاً وهمجية عن الهجوم الأول الذي قاده هولاكو والذي اطلعنا على جانب منه ونحن نتحدث عن حصار الموصل.

بذل حكام ماردين لدى اقتراب الخطر التيموري جهوداً كبيرة في إطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك وأهدافه العسكرية، وفي تنبيههم إلى مدى الأخطار التي تحيق، ليس بالإمارات الموالية لهم، بل بوجود المماليك ذاته. كما غدت ماردين مركزاً لاستخبارات المماليك في هذا الشأن، ولقد قام حكام المدينة بهذا الدور بسبب قربهم من مسرح الأحداث، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم، وولائهم للمماليك[1].

في مطلع رجب من عام (٧٨٩هـ ـ ١٣٨٧م) عاد إلى مصر من ماردين الأمير طغاي الذي كان قد سافر إلى ماردين لكشف أخبار تيمورلنك، وأعلم المسؤولين أن أميران شاه بن تيمورلنك دحر قوة موالية للمماليك، وأنه توجه بعد ذلك صوب آمد في ديار بكر، ومن ثم تكاثرت الشائعات عن قرب قيام

(١) انظر: ابن الفرات: تاريخ ٩/٣٦١ - ٣٧٨، ابن إياس: بدائع الزهور ١/٢٩٩، ٣٠٠ - ٣٠١، lane -poole Ahistory of Egypt in the Middle Ages. 331 - 32

تيمورلنك بغزو الشام ومصر على رأس قوات كبيرة، «فحصل للسلطان ـ الظاهر برقوق ـ تشويش عظيم بسبب ذلك»[١]، وأمر بالاستعداد لمجابهة الموقف[٢]. لكن تيمورلنك انشغل، طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية لعالم الإسلام، ولم يوجه اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية (العراق، الجزيرة، الشام) إلّا في عام ٧٩٥ هـ بعد أن ثبّت أقدامه في الشرق.

في شوال من ذلك العام أرسل تيمورلنك رسوله إلى أمير ماردين يطلب قدومه إليه، فاعتذر الأمير قائلاً: «بأن على يده يداً، وهو صاحب مصر» فأرسل تيمورلنك يقول له: إنّ أسلافك حكموا هذه البلاد منذ مئات السنين، وكانت الخطبة والسكة باسمهم «فإيش كان صاحب مصر»[٣]؟ وأوضح أنه ليس لسلطان مصر حكم بماردين، وطلب منه أن ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطته، فما كان من أمير ماردين إلّا أن أرسل كتاب تيمورلنك هذا، وهداياه، إلى مصر ليعلم رأي السلطان «فأعيد الجواب إليه بأن يخطب باسم سلطانه إلى أن نرى ما نختاره»[٤]، وقد أكد أمير ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة المماليك، والتزامه بما يرون بشأن هذا الحدث الخطير[٥].

قام تيمورلنك في العام نفسه (٧٩٥ هـ) بمهاجمة بغداد، وأجرى فيها مجزرة رهيبة، وتوجَّه في مطلع العام التالي نحو الشمال، ففتح تكريت عنوة، وتقدَّم إلى الموصل، فصالحه صاحبها وسار في خدمته، ومن ثم

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٤٧، ابن الفرات: تاريخ ٩/ ١٠.
(٢) ابن تغري بردي: المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٣) ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٣٤٣.
(٤) العيني: عقد الجمان (مخطوطة ٦٥ - ٤٥٤)، ابن تغري بردي: ١٢/ ٤٣، ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٤٠٥، وانظر ابن دقماق: الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢١٦).
(٥) انظر: المقريزي: السلوك (القسم المخطوط ٣/ ٤١٦).

تقدم غرباً إلى ديار بكر[١] الفاصلة بين العراق والشام، فاستولى على عدد كبير من مدنها وحصونها في فترة قصيرة، وقامت قواته خلال ذلك بنهب وتخريب معظم مناطق الإقليم، وقدم إلى تيمورلنك هناك حاكمان محلِّيان وأعلنا طاعتهما له، فأعادهما إلى إمارتيهما دون أن يتعرَّض لهما بأذى[٢].
وسعى الظاهر عيسى أمير ماردين إلى أن يحذو حذوهما بعد إذ لم ير جدوى انتظار نجدة المماليك الذين لم يتخذوا موقفاً حاسماً إزاء قوات تيمورلنك في ديار بكر، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب، وذلك بإرسال قوة عسكرية قوامها ألف فارس هاجمت قوات تيمورلنك عند الرها وأجبرتها على التراجع قليلاً[٣]، وسوى وقوف قوات حلب وبعض القبائل التركمانية على الفرات لرصد حركات العدو[٤].

جمع الظاهر عيسى حاشيته، وقال: إني ذاهب إلى هذا الرجل (تيمورلنك) ومظهر له الانقياد، فإن ردَّني حسبما أريد فهو المراد، وإن طالبني بالقلعة فامتنعوا أنتم، وإياكم أن تسلِّموها إليه أو تعتمدوا على كلامه، وإنْ خَيَّركم بين تسليم القلعة وبين إتلافي فاختاروا الثانية، فإنكم إن سلمتموها إليه خرجتم من باطنكم وظاهركم، وأتى بالهلاك على أولكم وآخركم، وخسرتم شعاركم وغبنتم أنفسكم ودياركم.. ومن ثم توجه إلى تيمورلنك بعد أن استخلف على الحكم ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد. ونزل يوم الأربعاء منتصف ربيع الأول (٧٩٦هـ)، واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الهلالية. وسرعان ما قبض عليه

(١) المصدر السابق نفسه: ٣/٤١٦ - ٤١٧، ابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٣٣٤ - ٣٣٧.
(٢) ابن العماد: شذرات ٦/ ٣٤٤ - ٣٤٥، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٧٥ - ١١٧٦، ١٠٨٢ - ١٠٨٥، ابن صصرى: الدرة المضيئة ص ١٤٨، ابن عربشاه: أخبار تيمور ص ٤٧ - ٤٨.
(٣) ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٣٧٠.
(٤) ابن خلدون: العبر ٥/ ١٠٨٥.

تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة، فأجابه «بأن القلعة عند أربابها وبيد أصحابها، وأنا لا أملك إلا نفسي فقدمتها إليك، وقدمت بها عليك فلا تحمِّلني فوق طاقتي». . فأتى به تيمورلنك إلى أسفل القلعة وطلب من أهلها تسليمها إليه فأبوا، فقدمه إليهم ليضرب عنقه أو يستجيبوا لمطلبه فرفضوا، فطلب منه كي يطلق سراحه دفع مبلغ ستة ملايين درهم فضي وعدد من الهدايا يتقرب بها[١]، ويبدو أن الظاهر لم يتمكَّن من الاستجابة لطلبه الأخير، لذا ضيّق عليه تيمورلنك في سجنه، ومنعه عن الناس «ليذهب عنه ما به من قوة»[٢]، ومن ثم راح تيمورلنك يتردَّد وقواته في أنحاء ديار بكر والموصل يفسدون ويخربون. وفي جمادى الآخرة أمر قواته بالتوجه إلى ماردين فتقدَّموا إليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة في الثاني عشر من الشهر المذكور، وحاصروها فجراً[٣]، وما لبثوا أن أحلوا بها الدمار وتسلَّقوا أسوار المدينة من ثلاث جهات، وتمكّنوا من الاستيلاء عليها عنوة، وراحوا يفسدون ويخربون، وانسحب أهالي المدينة إلى القلعة تحت حماية نبال الجند المدافعين، وبقي قسم منهم يقاتلون الأعداء. واستمر القتال حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى، وعندما حلَّ الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكروا تجاه المدينة، وأخذوا يعِدّون أنفسهم لهجوم جديد لدى الفجر[٤].

قام علاء الدين الطنبغا نائب السلطنة بماردين وجماعة من الأمراء بتعزيز التحصينات[٥]، وما أن طلع الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها

---

(١) ابن عربشاه: أخبار تيمورلنك ص ٤٨ - ٤٩.
(٢) المصدر السابق نفسه: ص ٤٩.
(٣) المصدر السابق نفسه: ص ٤٩، ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧)، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٧٦، ابن صصرى: الدرة المضيئة ص ١٤٨.
(٤) ابن عربشاه: أخبار تيمورلنك ص ٤٩ - ٥٠، ابن تغري: المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧).
(٥) ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٤٥٣، العيني: عقد الجمان (مخطوطة ٦٦/ ١١ - ١٣).

الثاني ضد المدينة بشكل أشد وأعنف، فخربوها وهدموا أسوارها، وتمكنوا عقب الظهر من الاستيلاء على البلد، واستغلوا مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة، ووصلت الشائعات إلى دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين، فسيطر على الأهالي خوف شديد.. وشدد المهاجمون حصارهم لقلعة ماردين، وأبلى الطنبغا بلاءً حسناً في الدفاع، وتمكن أنصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك. ولما عجز هذا عن تحقيق هدفه فكَّر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة، فأرسل إليهم مع رسوله يقول: نُعْلِم أهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين، أننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية. ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين. وقد أدَّى صمود القلعة وتناقص المؤونة واشتداد البرد إلى اضطرار تيمورلنك لفكِّ الحصار والعودة إلى بلاده في ذي العقدة عام ٧٩٦ م بعد أن أعمل السيف والتخريب في مدينة آمد المجاورة رغم الأمان الذي منحه سكان المدينة، وقد استصحب معه خلال عودته الملك الظاهر «بسوء نية»، حيث اعتقله بمدينة سلطانية ـ مقر حكمه ـ مع أربعة من كبار أمرائه، وضيّق عليه لكي يقطع وصول أيّ خبر عنه إلى ماردين[١].

ما أن رحل تيمورلنك عن ماردين حتى أرسل نائبها إلى سلطان المماليك في مصر يخبره عن إخفاق الهجوم التتري في تحقيق بغيته وعدم صحة الشائعات التي راجت حول سقوط ماردين، ففرح السلطان بذلك

(١) ابن عربشاه أخبار تيمور ص ٥٠، ابن صصرى: الدرة المضيئة ص ١٥٨، الغياث: التاريخ الغياثي ص ٢٠٦ - ٢٠٧، ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٤٥٣، العيني: عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ - ١٢)، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ـ (مخطوطة ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨)، ابن خلدون: العبر ٥/ ١١٧٦ - ١٠٨٥، الرمزي: وقائع قزان وبلغار ١/ ٦١٣. ويخطئ بوفا في الإشارة إلى أن تيمورلنك استولى على ماردين في هذا الهجوم (دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية: ٦/ ١٦٠ - ١٦١).

وخلع على رسوله[١]. وهكذا استطاعت ماردين بما تتمتع به من حصانة، وبتضحية سلطانها الظاهر وإخلاص أمرائها أن تصمد إزاء هجوم تيمورلنك، وأن تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة الفراتية، ودون أن تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك.

سعى تيمورلنك إلى استخدام وسيلة أخرى لإخضاع ماردين بعد أن أخفق في الاستيلاء عليها بالقوة، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى محتجزاً لديه منذ عام ٧٩٦ هـ. ويصوِّر المؤرخ ابن عربشاه الخطوات التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الغرض فيقول: مكث الظاهر سنة معتقلاً لا يدري أحد خبره. ثم وفدت الملكة الكبرى عليه، وخففت عنه ما به من ضيق، وسمحت له بمراسلة جماعته، وحرضته على طلب الدخول في رضا تيمورلنك وطاعته، زاعمة أنها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من مكائد تيمورلنك وبإشارته. وفي شعبان من عام ٧٩٨ هـ قام تيمورلنك باستدعاء الظاهر «بإكرام تام وانشراح صدر وخاطر»، ففكّوا قيوده وقيود أمرائه، وأظهروا له غاية التعظيم، وفي السابع عشر من رمضان دخل على تيمورلنك فتلقاه هذا بالاحترام وعانقه بحرارة واعتذر له عما فعله، واستضافه ستة أيام منعماً عليه بعطاء جزيل «من ذلك مئة فرس وعشرة بغال وستون ألف دينار وستة جِمال وخِلَع مزركشة ولواء يخفق على رأسه»، كما أعطاه ستة وخمسين منشوراً كل واحد منها بتولية بلد مما يحيط بماردين، «وكل ذلك ـ يقول ابن عربشاه ـ من الدهاء والمكر»؛ إذ كان هدفه أن يكون حكام تلك البلاد جميعاً تحت طاعته يحملون إليه الخراج ولا يصدرون إلا عن أمره، «ويعفى الظاهر عيسى فلا يحمل إلى تيمورلنك ولا إلى غيره شيء، وهذا وإن كان في الظاهر كالإكرام فإنه فيما يؤول إليه وبال عليه وانتقام، وفيه كما ترى ما فيه من إلقاء العداوة بينه وبين مجاوريه»[٢].

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٣٧٨، العيني: عقد الجمان (مخطوطة ٦٥/ ٤٦١).

(٢) ابن عربشاه: أخبار تيمور ص ٥١. وانظر ابن العماد: شذرات ٦/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

اشترط تيمورلنك على الظاهر، لقاء ذلك، أن يكون تحت حمايته وأن يعول في كل أموره عليه، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية، وأن يلبّي دعوته بالقدوم إليه كلما طلبه، ويضرب السكة باسمه، وأن يخلع طاعته لسلطان مصر، وأن يقوم بإلقاء القبض على الملك علاء الدين الطنبغا فور دخول ماردين ويرسله إليه. فحلف له الظاهر على ذلك، ومن ثم عانقه تيمورلنك مودعاً وأمر كبار أمرائه بتشييعه، فغادر سلطانية في رمضان عام ٧٩٨هـ، وتوجه إلى تبريز حيث اجتمع بأميران شاه بن تيمورلنك فزاد هذا في إكرامه وعطاياه وودعه وداعاً حافلاً. ومن ثم توجه الظاهر إلى ديار بكر عن طريق أرمينية، وما أن وصل خبر قدومه حتى ابتهج الناس ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال، وخرج أهالي ماردين وأمراؤها إلى الاستقبال وعلى رأسهم ولي عهدهم الملك الصالح. فدخل المدينة وتوجه لزيارة أضرحة والده وأجداده الماضين، وعزم على التنازل عن منصبه والتوجه لقضاء بقية عمره في الحجاز، ولكن الناس خاصتهم وعامتهم لم يتركوه «وترامو عليه»، وعند ذلك قرر البقاء في منصبه. وبلغ الطنبغا أن الظاهر يريد القبض عليه وإرساله إلى تيمورلنك، فهرب إلى مصر حيث أنعم عليه السلطان المملوكي وعلى من معه، وأمر لهم بالرواتب الضخمة(١).

بهذا الأسلوب استطاع تيمورلنك إخضاع الأراتقة في الوقت الذي عجز فيه عن تحقيق ذلك باستخدام القوة. وبتسلم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في أواخر عام ٧٩٨ هـ اتجهت العلاقات الخارجية للأمارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه، فقد غدت خاضعة لتيمورلنك، وكان عليها

---

(١) ابن عربشاه: أخبار تيمور ص ٥١ - ٥٢، ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨)، ابن العماد: شذرات ٦/ ٣٥٣، ابن الفرات: تاريخ ٩/ ٤٥٣، ابن دقماق: الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢٣)، العيني: عقد الجمان (مخطوطة ٦٦/ ١١ - ١٢).

أن تخطب له وتضرب السكة باسمه، وأن يلبي أميرها دعوته كلما دعاه، وأن يخلع طاعة سلطان المماليك.

ولكن الأوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة كان الظاهر يتحين خلالها الفرص ويعدُّ العدة لإعلان الثورة على السيطرة التترية. وواضح أنه أرغم على قبول شروط تيمورلنك بسبب الظروف السيئة التي مرّت به خلال فترة اعتقاله ورغبته في التخلص من الأسر، وقد أوضح المؤرخ ابن عربشاه أنه حاول التنازل عن منصبه فور وصوله إلى ماردين مما يشير إلى أنه لم يخضع كل الخضوع لإغراءات تيمورلنك، وأنه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعاً للتتر يأتمر بأوامرهم. وفي الندوة الأدبية التي عقدت إثر تسلمه المنصب وما قيل فيها من أبيات، إيحاء بمدى كراهيته لتيمورلنك ورغبته وحاشيته بزوال ملكه حتى لقد أنشأ أحدهم، وهو الحسن بن طيفور:

طغى (تمر) واستأصلَ الناسَ ظلْمُه   وشاعت له في الخافقين الكبائرُ
لقد زاد بغياً فافرحوا بزواله   لأن على الباغي تدور الدوائرُ

ويبدو أن الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي سبقت عصيانه بسبب رغبته في التحرر من السلطة التترية من جهة، ولانشغال تيمورلنك عبر تلك السنوات بمشاكل مملكته الواسعة من جهة أخرى، ومن ثم أعاد الظاهر الخطبة للسلطان المملوكي في مصر، وفي عام ٨٠٢هـ أتاحت الظروف لتيمورلنك اتخاذ إجراءات شديدة ضد ماردين بسبب موقف أميرها المتردِّد تجاه السلطة التترية. فقد استدعي تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب عصيان عدد من الأمراء جنوبي الأناضول، فتوجه إلى هناك، ثم عرج على ماردين حيث قامت قواته بأعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب، ويظهر أن تيمورلنك تقدم خلال ذلك إلى صاحب ماردين

بمطاليب عديدة، فجاهر الأمير بالعصيان «لما كان قاساه من طاعة ذلك الغادر الذي ندم على إطلاقه..».

لم يشأ تيمورلنك الانشغال فترة طويلة بماردين، للعمل على إخضاع صاحبها وتأديبه، ولذا غادرها على أن يعود إليها بعد تصفية مشاكله وتنفيذ أهدافه الواسعة في الجهات الشمالية الغربية من عالم الإسلام. واستطاع في تلك الجولة أن يدمِّر ويستولي على عدد من المدن الإسلامية في آسية الصغرى والشام وعلى رأسها حلب ودمشق، ثم كر عائداً في شعبان (٨٠٣هـ) إلى ماردين بعد أن قوي مركزه إثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك. ونهبت قواته الرها لدى مرورهم بها، ومن ثم أرسل رسوله إلى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة أعرب فيها عن شوقه الشديد للقائه!! فأبى الظاهر أن ينزل إليه ولم يستمع إلى كلامه «ولا التفت إليه، فإنه كان قد آذاه أول مرة، فما احتاج إلى تجربة آخر مرة، وسلك معه بر السلامة»[١]، واكتفى بإرسال خادم له ومعه الهدايا والخدم، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة أمور؛ منها: تخوفه من غدره كما فعل في الحصار الأول عام ٧٩٦هـ، فلم يلتفت تيمورلنك إلى ذلك، وتقدَّم على رأس قواته صوب ماردين، في رمضان، وأخذ يعد العدة للحصار. وكان سكان المدينة قد استعدوا لذلك، فأخلوا المدينة وانتقلوا إلى القلعة التي تتميز بحصانتها الشديدة، والتي تتمتع بموارد تموينية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي كثير الأنهار والذي تنتشر فيه المزارع والمراعي[٢].

شدَّد تيمورلنك الحصار على ماردين من شتى جهاتها، وأخذ يتدارس مع قواته نقاط الضعف في إمكانياتها الدفاعية، ولم يكن حواليها مكان للقتال

(١) ابن عربشاه: أخبار تيمورلنك ص ١١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.

ولا لنصب مجانيق، فعول تيمورلنك على القيام بمحاولات لثقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس، لفتح ثغرات فيها لتتمكن قواته من التسرب عبرها إلى قلب القلعة. واستمرَّت عمليات النقب والهدم إلى العشرين من رمضان دونما نتيجة، ولما أدرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخريب المدينة وتهديم أسوارها ومبانيها وجوامعها، وقلع أشجارها «فمحا آثارها وفك أساسها وأحجارها»[١]، ومن ثم غادر ماردين متوجهاً إلى بغداد، وأخذ يعبث في طريقه بتلك المنطقة، فخرب نصيبين وفعل بها مافعله بشقيقتها ماردين[٢].

ترك تيمورلنك أحد حلفائه التركمان وهو قرايلوك عثمان أمير قبيلة (آق قوينلو) (الخروف الأبيض) على حصار قلعة ماردين، بعد أن ولاه على آمد وبعض المواقع المجاورة في ديار بكر، وقد اضطر هذا إلى الانسحاب هو الآخر بسبب مناعة قلعة ماردين من جهة، وعدم وجود المراعي الكافية لإطعام خيول القوات المهاجمة من جهة أخرى[٣].

وهكذا تمكنت ماردين من أن تثبت قدرتها الفذة على المقاومة بعد أن أعلنت العصيان على أقوى دولة في الشرق آنذاك، واستطاعت أن تقاوم حصاراً تمكن أصحابه أن يكتسحوا بقواتهم الضخمة ـ خلال ذلك العام بالذات ـ معظم الجهات الغربية الوسطى من عالم الإسلام. إلا أن الحصار العنيف كان قد ألحق أضراراً بالغة بالإمارة، كما ألحق الدمار بمدينة ماردين ولم يسلم منه إلا القلعة، وقد ترك قرايلوك عثمان المنطقة وقد تحولت إلى

(١) المصدر السابق نفسه: ص١١٧، ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨)، العيني: عقد الجمان (مخطوطة ٦٦/ ١٤٠).
(٢) ابن عربشاه: أخبار تيمورلنك ص ١١٧ - ١١٨، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨.
(٣) الغياث: التاريخ الصافي (مخطوطة ص ٢١١). وانظر عربشاه: أخبار تيمورلنك ص ١١٨.

خراب، وغادرها عدد كبير من سكانها[١]. ولم تستطع ماردين أن تنهض من كبوتها هذه المرة أو تستعيد ازدهارها وعمرانها، خاصة وأنه لم تكن هناك قوة إسلامية تحتمي بها هذه الإمارة لتتجه بعد ذلك إلى الإعمار والبناء كما كانت تفعل من قبل، إذ كان المماليك قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في الشام، لم يستطيعوا معها أن يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الإسلامية، وخصوصاً في الشام والجزيرة والأناضول، فترة من الزمن.



(١) الغياث: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن تغري بردي: المنهل الصافي (مخطوطة ٢/ ٤٩٧ - ٢٤٩٨).

مقارنات

من خلال إلقاء نظرة سريعة على عناصر الوحدة والتنوع في مقاومة المدن الثلاث، ومن قبلها مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الأحزاب.. نلتقي بعدد من المؤشرات؛ هذا بعضها:

اعتمدت المدن الثلاث على (الأسوار) في دفاعاتها؛ وهو التقليد العسكري الذي كان سائداً يومها، ليس في الشرق الإسلامي أو مغربه فحسب، بل في العالم كله.. أما المدينة فقد اعتمدت فكرة (الخندق) لمجابهة الموقف الخطير..

استندت كل من المدينة وماردين على قواهما البشرية الذاتية، وجاءت (الريح) التي سلطها الله على معسكرات الوثنيين وفعلت فعلها فيهم، بمثابة إسناد خارجي.. بينما سعت الموصل وحلب لطلب نجدة عسكرية من الخارج من أجل كسر الطوق، وإذ سحقت النجدة في الحالة الأولى فإنها تمكنت في الثانية من أن تحقق هدفها وترغم الغزاة على الانسحاب.

لعبت الأزمات الاقتصادية دورها البالغ في حصار المدن الأربع، وهو أمر محتوم إزاء كل حرب؛ حيث يستهدف المهاجمون اعتماد سلاح التخريب والتجويع لإرغام الخصم على الاستسلام، وفيما عدا الموصل فإن المدن الثلاث الأخرى تمكّنت من التفوق على الأزمة بالإيمان الواعي والتخطيط المدروس..

جرت حملات نفسية للتخذيل والدعوة إلى الاستسلام، وكان هذا واضحاً في المدينة؛ حيث أرجف المنافقون والذين في قلوبهم مرض، وقاموا بحملاتهم النفسية المعروفة التي كان رسول الله ﷺ يعرف كيف يلاحقها ويطفئ نارها الواحدة تلو الأخرى.. كما جرى التخذيل نفسه في الموصل من قبل العديد من رجال البلد الذين ألحُّوا على أميرها بالخروج

معتقدين أن فيه خلاصهم، رغم تحذير الملك الصالح. أما في حلب فقد كان لتردد أميرها السابق حسام الدين تمرتاش وانهزاميته أثر سيِّئ في الروح المعنوية لمقاتليها.

وإلى جانب هذا شهدت ساحات القتال في المدن الأربع أعمالاً خيانية، وكشفت نار الخوف وبريق المطامع عن رجال كانوا مستعدين للتنازل عن عقيدتهم وبيع أهليهم وبلادهم هروباً من عقاب رهيب، أو طمعاً في ثواب قريب.. المنافقون إياهم ويهود بني قريظة حلفاء الرسول ﷺ في محنة المدينة.. دبيس بن صدقة ورفاقه من أمراء شمالي الشام في أزمة حلب؛ أولئك الذين زينوا للصليبيين فكرة الحصار.. الزين الحافظي الذي تسبب في سحق النجدة المتوجهة للموصل وقادها إلى الدمار.. والملك المظفر الأرتقي أمير ماردين الذي صحب المغول في حصارهم للموصل أو خارجها، فالأمر سواء، وقد لعبت في كل الأحوال دوراً خطيراً لصالح الأعداء.

هاجمت المدنَ الأربع قوى كانت تجد بسهولة من يحالفها لهذا الغرض أو ذاك ويسير في ركابها.. ولقد سميت غزوة الخندق بالأحزاب لأن قريشاً ويهود خيبر عرفا كيف يحركان الكثير من القبائل الوثنية ويحزبانها ضد الهدف المشترك. وفي حلب أسهم إلى جانب الصليبيين عدد من الأمراء المسلمين (الصغار) بقواتهم: دبيس بن صدقة المزيدي، سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، وياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي.. أما في الموصل فقد انضاف للمغول المهاجمين عدد من الأمراء كان أبرزهم المظفر الأرتقي أمير ديار بكر.. وأما في ماردين فقد أوصى تيمورلنك حلفاءه التركمان بقيادة قرايلوك عثمان بمواصلة مهمته في تدمير مقاومة المدينة وإرغامها على الاستسلام.

تميَّز المهاجمون في كل الأحوال بنزعتهم التخريبية، وليس المقصود هنا السعي لتدمير قوى الخصم الاقتصادية، الأمر الذي تبيحه ضرورات الحرب

في معظم الأحيان، وإنما المقصود هو انخفاض المستوى الحضاري للمهاجمين واقترابهم من البربرية بدرجة أو أخرى، فهو صراع بين البربرية والتحضر.. ومعروف المستوى المتدني لحشود الأعراب التي هاجمت مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب طمعاً في ثمرها وتمرها.. ومعروف ـ كذلك ـ مستوى التتار والتيموريين القادمين من مجاهل آسيا.. أما الصليبيون فيكفي أن نلقي نظرة على سلوكهم (الهمجي) وتصرفاتهم البدائية عند أسوار حلب لكي ندرك مدى تدنيهم: لقد كانوا ينبشون قبور المسلمين ويسلبونهم أكفانهم.. ويصنعون من توابيتهم آنية للطعام، أما موقف ذلك الفرنجي من المصحف الشريف فهو صورة (كاريكاتيرية) مضحكة محزنة لذلك الغربي المتوحش وهو يسعى إلى إطفاء نور الشرق وسراجه الوهاج..

لم تعطِ المدينة وحلب وماردين عدداً يذكر من الضحايا، أما الموصل فقد قدمت آلافاً من الشهداء حصدتهم سيوف المغول بعد دخولهم المدينة.. ومن قبل كان المغول قد سحقوا النجدة التي قدمت من حلب بقيادة البرلي..

وإذ لم يمضِ على حصار المدينة سوى ثلاثة أسابيع حتى آل إلى الإخفاق، فإن حصار المدن الأخرى قد استغرق الأشهر الطوال، والسبب يرجع إلى موقف طرفي الصراع والظروف التي اكتنفتهم. ففي غزوة الخندق كان المسلمون يقفون وراء قيادة رسولهم عليه الصلاة والسلام بكل ما تميزت به من صبر وتفانٍ وإيمان مطلق بالمصير.. وكان يحاصرهم ـ في المقابل ـ حشود من القبائل كانت تفقد الدافع العميق للقتال، وتفتقد، في الوقت نفسه، القيادة الموحدة والهدف المحدد، ثم جاءت ريح الله العاتية لكي تكون الضربة القاضية، وترغم الغزاة على الانسحاب.. أما في حالة المدن الثلاث الأخرى، فقد تميَّزت قيادة المهاجمين بوضوح الهدف وتحديده، وبالإصرار ـ أيضاً ـ على الانتصار بأي أسلوب ومهما يكن الثمن. هذا إلى أن حروب الحصون والأسوار تستغرق ـ في العادة ـ مدىً

زمنياً أطول بطبيعة الحال من ذلك الذي تستغرقه أنماط الحروب الأخرى بسبب مناعة التحصين والقدرة بالتالي على المماطلة والتسويف. .

غيرت معركة الخندق مجرى الصراع الإسلامي الوثني، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام قولته المشهورة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، لقد تحولت المبادرة إلى أيدي المسلمين، وانتقلوا من مواقع الدفاع إلى مراكز الهجوم وجاء صمود حلب، ووحدتها مع الموصل بمثابة (بداية) أو (نواة) لدولة إسلامية موحدة ازدادت قوة وتماسكاً بمرور الوقت، وتمكنت عبر العقود القادمة من توجيه ضربات حاسمة ضد الصليبيين. . أما مقاومة الموصل وماردين فقد باءت أولاها بالفشل، وانتهت الأخرى باستنزاف خطير لماردين، ومن ثم فلن نتوقع منها نتائج حاسمة بهذا الاتجاه أو ذاك، ولكنهما استطاعتا ـ على الأقل ـ عرقلة حركة الغزاة وامتصاص اندفاعها واستنزاف طاقات العدو العسكرية، الأمر الذي تبدَّت نتائجه على المدى البعيد. .

وقبل هذا كله، وبعد هذا كله، يبقى عامل الإيمان بالله ورسالته والاستماتة دون عقيدة الإسلام وأرضه. . والتكوين (الجهادي) الذي صنعته ـ ولا تزال ـ عقيدة الإسلام عبر الأجيال، على مستوى القواعد والقيادات، يبقى العامل الأخطر والأكبر في ترجيح موازين القوى وفي تمكين المسلمين عبر التاريخ من مجابهة خصومهم والتفوق عليهم في كثير من الأحيان مهما تباينت موازين القوى المنظورة واختلفت مستوياتها كمّاً ونوعاً. . وتبقى المقولة القرآنية خالدة دائمة تفعل فعلها على مدى التاريخ مهما تنوعت أنماط السلاح وتغايرت خطط الحروب وأساليبها: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. . ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. . وصدق الله العظيم.

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.


@Ahmedyassin90

محاولات انقلابية

في تاريخنا

١

شهد تاريخنا الإسلامي محاولات انقلابية عديدة للعودة بالحياة إلى الصيغ التي أرادها الله ورسوله، ولتنظيم أطرها ومعطياتها على ضوء القرآن والسنة، وكان بعض تلك المحاولات شاملاً متكاملاً سعى إلى تنظيم الحياة في كافة مجالاتها تنظيماً إسلامياً خالصاً، ورفض كل نشاط أو عمل أو ممارسة تشذ عن أسس هذا التنظيم ومبادئه.. وكان بعضها الآخر جزئياً محدوداً استهدف تنفيذ هذا الجانب أو ذاك من بنية الإسلام، وتغيير هذه الناحية أو تلك بما ينسجم وعقيدة الإسلام في دائرة السياسة، أو المعاملات، أو المال، أو الأخلاق.. إلى آخره.

وقد نجح العديد من تلك المحاولات، وأخفقت محاولات أخرى لأسباب عديدة ترجع ولا ريب إلى الطرائق والأساليب التي اعتمدتها المحاولة، أو إلى البيئة التاريخية التي نفذت فيها.

وقد جاءت دراستي عن تجربتي عمر بن عبد العزيز[١] ونور الدين محمود[٢] محاولة لرصد وتحليل اثنين من الانقلابات الشاملة في تاريخنا الإسلامي، استطاعا أن يحققا نجاحاً منقطع النظير على كافة المستويات، وقد دلَّ نجاحهما الباهر رغم تباين الزمان على إمكانية تنفيذ (التجربة) في أية فترة تاريخية تتوفر عبرها الشروط التي توفرت في محاولتي عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود، «لقد علمتنا تجربة عمر بن عبد العزيز أكثر الحقائق أهمية في تاريخ البشرية عموماً وتاريخ المسلمين خصوصاً، تلك هي أن الانقلاب الذي أحدثه عمر في هذه الفترة القصيرة، في حياة الناس وأهدافهم واهتماماتهم، وفي ميادين العمل جميعاً، سياسةً وحرباً، إدارةً

---

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، الدار العلمية، بيروت - ١٩٧٠م.
(٢) نور الدين محمود: الرجل والتجربة، دار القلم، دمشق - ١٩٨٠م.

واجتماعاً واقتصاداً، وتربيةً وتثقيفاً، والنجاح العظيم الذي حققه هذا الانقلاب في شتى أبعاده، إزاء ظروف صعبة معقدة، وركام عقود طويلة من السنين، انحرفت بكثير من المفاهيم والقيم والمبادئ الإسلامية، وأحدثت فصلاً وثنائية بدرجة أو أخرى، بين عقيدة الإسلام وشريعته، وبين الواقع الذي يعيشه الناس.. أن تمكّن عمر من إعادة التوحد بين الشريعة والواقع، وربط أجهزة الدولة جميعاً بالإطارات التي رسمها القرآن والسنة، وتوجيه حياة الناس ومعطياتهم وفق ما يريده الله ورسوله..

هذا النجاح يشير بوضوح إلى إمكان تنفيذ البرنامج الإسلامي، وتطبيق شرائع الإسلام وعقائدياته على واقع الحياة، في أية فترة يمكن أن يستلم فيها السلطة رجال يمتلكون الذكاء والحصافة والمرونة، إلى جانب الإيمان العميق والتقوى الدائبة التي تشد أعينهم أبداً إلى القيم العليا التي جاؤوا ليحققوها وإلى المخاطر التي تهدد هذه القيم والأهداف.. التقوى التي تقضي على رغائبهم الخاصة ومطامحهم الشخصية، وتوجه طاقاتهم جميعاً كي تصبَّ في المحيط الواسع الذي يذيب كل العقبات، ويهدم كل السدود التي تسعى للوقوف إزاء العودة بالحياة والأحياء إلى طريق الله..

تلك هي الحقيقة الكبرى التي علمتنا إياها الرحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، ذلك الذي قاد ثورة إسلامية ضد أوضاع شاذة في مختلف الجبهات، وتمكن بذكائه وحصافته ومرونته وإيمانه وتقواه من إحراز النصر العظيم»[١].

أما تجربة نور الدين محمود «فيما يمكن تسميته باطمئنان: إقامة الحكم الإسلامي في دولته، فإنها تأتي شاهداً تاريخياً آخر على أن الإسلام كعقيدة (أيديولوجية) قدير في أيَّة لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ص ٢٠١-٢٠٢ (الطبعة الخامسة).

والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على التماس مع واقع الحركة التاريخية وصياغتها، أو إعادة صياغتها، على ضوء معطيات الإسلام (كتاباً) و(سنةً) واجتهاداً ورصيداً تشريعياً، وعلى أن الجماهير الإسلامية مهما صدت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها، فإنها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم والتناغم العميق مع هذا الدين الذي كرمها الله ورسوله به، والذي لن تجد معه في أي (بديل) قد يجيء من هنا أو يأتي به من هناك إلا التغرّب والتمزّق والانقطاع.

إنها جماهير قرون الالتزام الطويلة ليس مع عقيدة كالعقائد؛ تحمل (الخرافة) التي تسقط بها في بدء الطريق، أو (العتمة المادية) التي تظل معها في منتصف الطريق، ولكنها عقيدة المنطق البشري والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدّها.. إنها لن تجد ما تضيعه هناك: العقل أو الروح أو الجسد. ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ماضيعتها إذ تفرقت بها السبل، العودة التي كانت تتحقق كفعل تاريخي من خلال بروز تحدٍّ خارجي أو داخلي خطير أو في أعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة.. العودة التي كانت تخرج بها دوماً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

٢

وأريد في هذا العرض الموجز أن أتحدث عن اثنتين من المحاولات (الجزئية) لتنفيذ قيم الإسلام ومعاييره في جانب ما من جوانب الحياة الاجتماعية أو السياسية: ملاحقة ظاهرة تعاطي الخمر والمفاسد الاجتماعية والقضاء عليها، وتنفيذ الحكم بالشورى.

---

(١) نور الدين محمود ـ الرجل والتجربة، ص ٥ - ٦.

صحيح أن الإسلام يرفض الترقيع، وأن (التجربة) إما أن تكون إسلامية كاملة أو لا تكون.. وأن من التناقض وغير المنطقي أن ينظم جانب من الحياة تنظيماً إسلامياً، وتنطلق الجوانب الأخرى وفق تصوُّر جاهلي.. وأن الحكم بما أنزل الله ليس مسألة اختيارية ولا أمراً انتقائياً، وإنما هو إلزام بالتنفيذ الكلي الكامل لشريعة الله في واقع الحياة.. وصحيح أيضاً أن تنفيذ أية جزئية إسلامية في الواقع لن يتيح لها الاستمرار والدوام لأنها تقوم على غير أساس عميق وتتحرّك وتنمو في غير أرضيتها الطبيعية ورحمها الحقيقي، وبالتالي فسرعان ما تتعرض للضمور والتيبس والزوال، أو للانكسار والتفتت بسبب ضغوط تفوق قدرتها على التحمل والاستمرار.

صحيح هذا أو ذاك.. ولكننا نريد أن نعرض هنا لما وقع فعلاً.. إذ إن البحث التاريخي لا يتحدّث عما يجب أن يكون، وإنما عما هو كائنٌ فعلاً.. وإذا كانت تجربتا عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود قد حققتا تطابقاً باهراً بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون، فإن المحاولات الجزئية بعدت بدرجة أو بأخرى عن تحقيق هذا الهدف للأسباب التي عرضنا لها قبل قليل.

ومهما يكن من أمر فإن محاولات كهذه تفرض التقدير والاحترام ما دام أن وراءها نية حسنة تسعى إلى تنفيذ ما تقدر على تنفيذه من قيم الإسلام وموازينه، فإنما الأعمال بالنيات، كما يقول رسولنا عليه الصلاة والسلام، وإنما لكل امرئ ما نوى.

ومن يدري فلعل الكثير من الجوانب الأخرى للحياة كانت تتحرك يومها وتتخلّق وفق المنظور الإسلامي، وأن المحاولة جرت في هذا الجانب أو ذاك لأنه كان يبدو ظاهر الغرابة والشذوذ، أو لأنه بلغ حدّاً من التورّم اقتضى استئصاله قبل أن يسري بالوباء إلى الجوانب الأخرى.

٣

كان ذلك في عام تسع وسبعمئة للهجرة، في عهد السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس المنصوري. بدأت المحاولة من قبل نائب السلطنة في بلاد الشام، فلما ورد البريد إلى مصر بذلك ارتاح له السلطان وعزم على أن يفعل مثل ذلك بديار مصر، وندب للمهمة الأمير سيف الدين الشيخي، وأمره بألَّا يراعي أحداً مهما كانت منزلته، وألَّا يدع بيتاً بمصر والقاهرة من بيوت أعلى الناس وأدناهم يبلغه أن فيه خمراً إلَّا ويكبّه ويكسر ما فيه، وكان الشيخي يتميز بالشدة والقوة، فبدأ مهمته بأن طلب من والي القاهرة ومقدميها وخفرائها أن يجتمعوا به، وسألهم عن مواضع الخمر فلم يجيبوه، وأخفوا سائر المواضع، فضرب جماعة منهم بالمقارع، فدلوه على أسماء صُنَّاع الخمر وخزنتها، فكتب هذه الأسماء، وكان من بينها عدد من الأمراء والكتَّاب والأجناد والتجار، وبدأ حملة كبس البيوت، فكان الرجل لا يشعر إلا والشيخي يَدْهُمُ بيته بصحبة ثلة من المماليك ومعه النجارون والبناؤون لتفقد مطامير الخمر تحت الأرض وإخراجها، فإذا ظفر بها كسر سائر ما فيها.

نزل بشاربي الخمر من جراء هذه الحملة بلاء شديد، وافتضح كثير من المستورين، وأخذ الناس يدلّ بعضهم على بعض، بعد أن لوحت لهم عصا السلطة الغليظة، حيث يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.. وكبست أيضاً دور اليهود والنصارى، وأريق ما فيها من الخمور.. وتعدَّى الأمر ذلك إلى دور الأمراء؛ فكبست بيوت من عرف بشرب الخمر منهم، فأزال الله بذلك فساداً كبيراً، وكادت الحملة تحقق أهدافها لولا ما داخلها أحياناً من فوضى استغلها جماعة من الناس من الأهالي والأجناد، فنهبوا عدداً من الدور والأموال، ووقع من الضير ما دفع عدداً من كبار الأمراء إلى التجمع

والتوجه إلى السلطان بايقاف الحملة، فاستجاب السلطان لهم[١] خشية أن يتسع الخرق، وأن تمتدَّ الفوضى.. ولا ريب أن المحاولة لو أتيح لها قدر أكبر من الانضباط والتنظيم، وأُلحق بها عدد أكبر من الجند يمنعون الفوضى ويضربون على أيدي نهازي الفرص، لمضت إلى غايتها وحققت نجاحاً طيباً بعد إذ تهيأ لها أمير تميَّز بالقوة، عادل لا يفرق بين مسلم وذمي، ولا بين فقير وأمير.. ومن يدري؛ فلعل في الأمراء أنفسهم، ممن تضررت مصالحهم وضُيِّق على شهواتهم، من دفع حشود الناس لاستغلال الفرصة والقيام بالسلب والنهب كي يفتحوا على حملة إلغاء الخمر ثغرة يتسللون منها لإقناع السلطان بالكفِّ عن المضي فيها!

لم تكن هذه المحاولة هي الأولى والأخيرة، فقد سبقتها محاولات وأعقبتها أخرى، وكان أبرزها تلك الحملات التي شهدتها مصر والشام في أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون، منها على سبيل المثال ما حدث عام ٧٢٠هـ؛ حيث وصل الخبر إلى مصر بأن السلطان المغولي في العراق وبلاد فارس: أبا سعيد خربندا قد أصدر أوامره بإراقة الخمور في سائر مملكته، وقتل من وجدت الخمر في بيته ثانيةً بعد إراقتها، وكان هذا الإجراء ضمن حملة شاملة سعى السلطان أبو سعيد خلالها إلى تنفيذ سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية؛ حيث أبطل بيوت الفواحش، وأبعد أرباب الملاهي، وأغلق الحانات، وأبطل المكوس، ورفع شهادة الإسلام، ونشر العدل، وعمر المساجد والجوامع.. ويبدو أن سلطان مصر وجد نفسه مضطراً إلى إعلان الحملة نفسها في بلاده، وإلا تعرض لنقمة الناس، وعرَّض مركزه للاهتزاز بعد الإجراءات التي اتخذها خصمه المغولي، الأمر الذي يفسِّر لنا اقتصار الحملة على بلاد الشام بإبطال ضمان الخمارات،

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جزء ٢ قسم ١ ص ٥٣ - ٥٤ (تحقيق د. مصطفى زيادة).

وإراقة الخمور، وغلق الحانات واستتابة أهل الفواحش.. فنفذ ذلك في سائر مدن البلاد الشامية وضياعها وجبالها، واجتهد النواب في إزالة صنوف المنكر حتى طهَّر الله منها ومن أهلها البلاد[١].

وبعد ثلاث سنوات، بدأ والي الإسكندرية الجديد (الأمير بكتمر الحسامي) حكمه بإراقة الخمور في المدينة ومنع بيعها، وعيَّن جماعة من النقباء يتولّون الإشراف على الحملة لقاء أجور يومية، كما قام الأمير بحمل الناس على الأمور الشرعية، فحاول المتضررون منهم إفشال الحملة فاستخفُّوا به، وطمعوا فيه وكثر فسادهم، لكنه عرف كيف يعتمد الشدة لمعالجة الموقف، ويتخذ من العقوبات ما يوقفهم عند حدهم ويرغمهم على الطاعة.. فكان الرجل إذا شكى يجبى منه من مئتي درهم إلى ما دونها، وإذا ألحَّ في الاعتراض والإفساد تعرَّض للضرب.. وشهدت ساحات الإسكندرية ضرب عدد من هؤلاء المفسدين فخضع له الجميع[٢].

وفي العام التالي قلَّده والي القاهرة الأمير سيف الدين قدادار الذي بدأ حكمه هو الآخر بإراقة الخمور ومنع تعاطيها، واعتمد الشدة في التنفيذ فعظمت مهابته[٣].

هذا ما يعرضه المؤرخ المصري المقريزي في مدى زمني لا يتجاوز العقدين.. محاولات عديدة ومنظمة لمطاردة الفاحشة في المجتمع الإسلامي، وبخاصة ظاهرة تفشي الخمر، والسعي للقضاء عليها.. ولا ريب أننا لو تابعنا مسيرة التاريخ الإسلامي عبر طريقه الطويل؛ فسوف نلتقي بمحاولات أخرى في هذا الاتجاه تتجاوز العشرات إلى المئات.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١١.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٦.

٤

إلى جانب هذه المحاولات التي استهدفت الإصلاح الأخلاقي أو الاجتماعي بصفة عامة، شهد التاريخ الإسلامي محاولات انقلابية جزئية في مجالات الحياة الأخرى السياسية والاقتصادية والتشريعية. . . إلى آخره، مما يشكل مجالاً خصباً للدراسة التاريخية التي تستهدف آفاقاً جديدةً في البحث، وكلنا يعرف على سبيل المثال المحاولات التي قام بها عدد من الخلفاء عبر التاريخ الإسلامي للانقلاب على النظام الوراثي، وإعادتها شورى بين المسلمين جميعاً، ولكن هذه المحاولات آلت إلى الإخفاق لأنها كانت تجابه تحديات فوق الطاقة. . إنما نجحت التجربة الشورية التي أقامها الوزير الأندلسي الشهير أبو الحزم جهور بن محمد عام ٤٢٢هـ؛ لأنها جاءت في أعقاب ضعف الخلافة الأموية وتهافتها، وعدم قدرتها على ضبط الأمور ومجابهة المشاكل والاستجابة للتحديات. .

يقول محمد عبد الله عنان في كتابه (دول الطوائف) متحدثاً عن هذه التجربة: «أجمع القرطبيون في أواخر عام ٤٢٢هـ على التخلص نهائياً من بني أمية، وكان عميدهم ورائدهم في ذلك أبو الحزم جهور، وكان هذا الوزير القوي النابه يستأثر ـ نظراً لماضيه التالد ورفيع مكانته ووفرة حزمه ونضجه ـ بمحبة الشعب وثقته وتأييده، وغدت قرطبة على إثر ذلك دون خلافة أو حكومة. وكانت الأنظار كلها تتطلع إلى ذلك الزعيم ليتولى الحكم وتدبير الأمور في تلك الآونة العصيبة. وهكذا اختير أبو حزم جهور، بإجماع الرأي، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة. . وألفى نفسه، بعد أن أجمع الشعب على اختياره، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة التي تبسط عنوانها على رقعة متوسطة من الأندلس. . لكنه لم ينفرد بالرئاسة ولم يستأثر بتدبير الأمور والبتِّ فيها، إنما جمع حوله صفوة الزعماء والقادة يتحدَّث

باسمهم أو باسم (الجماعة) ويرجع إليهم في الأمور ويصدر القرارات باسمهم، فإذا طُلِبَ منه مال أو مضاء أمر؛ قال: ليس لي عطاء ولا منع، إنما هو (للجماعة) وأنا أمينهم، وإذا رابه أمر عظيم أو اعتزم تدبير مسألة خطيرة استدعاهم وشاورهم، وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء.. وقرن أبو حزم جهور ذلك كله بإجراء بارع آخر هو أنه لم يفارق رسم الوزارة، ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء، ولم يتخذ أي إجراء يبرز رياسته أو يحيط نفسه بأي مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة، بل لبث على سابق عهده من التواضع والقناعة وخفض الجناح ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى.

وقد عرفت هذه الحكومة الفريدة في صحف التاريخ الإسلامي (بحكومة الجماعة).. وكانت نموذجاً بديعاً من حكم الشورى.. في عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفريدة والحكم المطلق. وسلك أبو حزم جهور في حكومته مسلك الأصالة والحزم، وكان أول همه أن يقلع الشغب، وأن يوطد دعائم النظام والأمن، فصانع زعماء البربر واستمالهم بالرفق وخفض الجناح فحصل على محبَّتِهم وسلمهم، وجعل أهل الأسواق جنداً، وفرَّق السلاح فيهم وفي البيوت حتى إذا دهم أمر في الليل أو النهار، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم. وأصلح القضاء، وعمل على حفظ العدالة بين الناس، وقضى على كل مظاهر البذخ والإسراف، وخفّف أعباء المكوس، وعمل على حفظ الأموال العامة ولا سيما الأموال السلطانية؛ حيث عهد بتحصيلها وحفظها إلى رجال ثقات يشرف عليهم بنفسه، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة، ومن ذلك أنه فرق الأموال على التجار لتكون بيدهم دَيْناً عليهم يستغلون ويحصلون على ربحها فقط، وتحفظ لديهم، ويحاسبون عليها من وقت لآخر. وكان من نتائج هذه الإجراءات أن حل الرخاء مكان الكساد وازدهرت الأسواق وتحسَّنت الأسعار ونمت الموارد.

واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة أبي الحزم جهور تدير الأمور في قرطبة وأراضيها زهاء اثنتي عشرة عاماً، وقد سادت بها السكينة والدعة والأمن، وجهور لا يتحول عن سياسته، والشعب القرطبي يؤيده بطاعته ومحبته، فضلاً عن أن قرطبة غدت في أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين.. وفي عام ٤٣٥هـ (١٠٤٤م) توفي الرئيس أبو الحزم جهور وقرطبة رافلة في حلل السلم والرخاء، فخلفه في السياسة ابنه أبو الوليد محمد، فحاول في البداية أن يقتفي سياسة أبيه، وأقر الحكام وأرباب المراتب في مناصبهم.. لكنه ما لبث بعد حين أن تنكب عن هذه السياسة فقدم على الناس ولده عبد الملك وأخذ عليهم العهد له، فأساء عبد الملك السيرة، واستبد بالسلطة، وأفسح المجال للأوغاد وأهل الشؤون، ولهث وراء المظاهر الفارغة، فبدأت عوامل الفساد تدب إلى جهاز الحكم... وأخذ الشعب القرطبي عن آل جهور كل ذلك، والرئيس أبو الوليد ملتزم داره لشلل أقعده. وفي عام ٤٦٢هـ تمكنت قواد بني عباد في إشبيلية من اقتحام قرطبة في أعقاب اتفاق مع عدد من زعماء قرطبة الناقمين، وتم اعتقال عبد الملك وأبيه وسائر بني جهور، ونُفُوا إلى إحدى الجزر البعيدة، وانتهت بذلك دولة بني جهور في قرطبة بعد أن بدأت تلك البداية النموذجية الطيبة...»[١].

٥

ومهما يكن من أمر فيجب ألا يخطر على البال بأن المحاولات الانقلابية بصيغها الشاملة والجزئية، كانت من عمل السلطة وحدها، أي

---

(١) مقتطفات من الصفحات ٢٠-٣٠ من كتاب (دول الطوائف)، وهو الجزء الثالث من كتاب (دولة الإسلام في الأندلس)، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٨٠م.

القيادة السياسية والتشريعية متمثلة بهذا الخليفة أو السلطان ذاك، وبهذه المجموعة أو تلك من الرجال الذين يتربَّعون قمة الهرم الإداري.. وأن القيادة وحدها هي التي كانت تخطط للانقلاب وتنفذه في واقع الحياة.

صحيح أن انقلابات القمة كانت تسندها وتمكن لها، في كثير من الأحيان، أجهزة الدولة وإمكاناتها المادية والأدبية.. ولكننا يتوجب أن نمدَّ رؤيتنا إلى الأقطاب الأخرى التي شاركت في هذا النمط من الفعل التاريخي، وهما قيادة المعارضة، والجماهير، فما أكثر الحركات الانقلابية والثورات التي قادها الثوار والمعارضون الذين كانوا يقارعون السلطة رافعين خلالها شعاراتهم الإسلامية، طارحين برنامجاً إسلامياً في حالة النجاح واستلام السلطة.. ومن ثم فإن كل المحاولات الثورية التي شهدها التاريخ الإسلامي، وما أكثرها، والتي كانت تستهدف ضرب انحراف السلطة أو تقويمه.. إنما ترفد هذا التيار الذي نتحدث عنه: الانقلاب من أجل تحقيق حياة إسلامية خالصة، وهو تيار له ثقله الكبير وحجمه الواسع الذي يغطي مساحات من تاريخنا ممتدة في الزمان والمكان، متوغلة في الفكر والوجدان.

أما الجماهير الإسلامية فكان دورها ضربة لازب في مجرى هذه الانقلابات، سواء قام بها من يَحْكُمُ أو من يُحْكَمُ، وهو دور كبير لا يتمثل في الأتباع فحسب، بل يتجاوز هذا الموقف إلى المشاركة في الحركة، وتعزيزها وحمايتها في حالة النجاح، وفرض الرقابة التي يصعب معها إيجاد أية ثغرة قد يتسرب منها الفساد والدمار... ثم إن الجماهير نفسها هي ميدان (الاختبار) والالتزام والتنفيذ، وبقدر ما تكون على استعداد لتقبُّل أهداف المحاولة وتمثلها، بقدر ما يكتب لها النجاح والتوفيق... وإنه لمن فضول القول التأكيد على فكرة أنه ما من حركة أو محاولة في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي إلَّا وكانت تعتمد على أذرع الجماهير وإيمانها، جنباً إلى جنب مع عقل القيادة وتخطيطها...

ومرة أخرى فإن البحث في المحاولات الانقلابية عبر تاريخنا الإسلامي يشكل مجالاً خصباً للدراسة التاريخية، ويمنح القناعات المدعمة بالوقائع على أن هذا الدين ما جاء لكي يتحرك في الفراغ كما يريد له أصحاب نظرية الفصل بين الدين والدولة.. وعلى أن أتباعه المخلصين، سواء كانوا في القيادة أو في صفوف الجماهير. .في القمة أم في القاعدة، ما كان يغمض لهم جفن وهم يرون مجرى الحياة يتخلق ويتحرك وفق صيغ لم يأذن بها الله ورسوله... ومن ثم كان ذلك السعي الذي ضُحِّي في سبيله بالمال والجهد والدم، ومنح الغالي والرخيص.

وهل بعد تحقيق الوفاق المرتجى بين كلمة الله وحركة الإنسان في العالم من هدف يستحق أن يُضَحَّى من أجله؟!





@Ahmedyassin90

شيء عن جاهلية العرب

١

كثر الحديث في العقود الأخيرة عن العصر الجاهلي وتبلور في اتجاهين؛ أحدهما: يؤكد (الجاهلية) ويمدها إلى كافة الأنشطة والاتجاهات في حياة العرب القديمة، ويصل بهم إلى الحضيض الأدنى، والآخر: يندفع في طريق مضاد؛ فينفي الجاهلية ابتداءً ويسعى إلى أن يبرئ العرب منها، ويجعل منهم أمة متحضرة وليس من الصواب وصفها بالجاهلية.. ويرتقي بهم صعداً صوب القمم العليا.

ويحار الإنسان للوهلة الأولى.. أي الاتجاهين يأخذ وأيهما يرفض، وهما نقيضان تماماً كل منهما ينطلق في طريق، ولقاؤهما مستحيل..

لكن التمعُّن في المسألة سرعان ما يكشف عن خطأ كلا الموقفين، ويبين كم أن الرؤية أحادية الجانب تمثل خطيئة بحق البحث التاريخي الجاد.. وإننا إذا أردنا أن نقترب أكثر من الحقيقة فإنه يتوجب علينا أن نعتمد منهجاً متكاملاً، ونستند إلى رؤية شمولية تضع في الحسبان كافة الجوانب، وشتى المكونات..

ولسنا هنا بصدد نقد وتفنيد معطيات الموقف الأول، فقد كتب فيه الكثير حتى كاد هذا الموقف أن يختفي لكي ينفرد في الساحة الموقف الثاني الذي يقول بألا جاهلية على الإطلاق.. ومن ثم سيكون مدار الحديث..

٢

ما الذي يقوله كتاب الله؟

إن القرآن الكريم وهو يتحدَّث عن هذا العصر يحسم الأمر بآياته البينات.. إننا نقرأ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[١]. . ونقرأ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

إنه التمزق إذن. . التمزق السياسي والفكري والاجتماعي، وليس ثمة ما هو الحق بالتخلف والجاهلية من التمزق الذي مد جناحه المشؤوم على كافة المساحات، والذي حفر من الخنادق والشقوق ما جعل من (المستحيل) تاريخياً، وبالجهد البشري وحده، تجاوز المحنة وتحقيق أي نمط من (الوحدة) بين العرب على الإطلاق.

إنه حتى الدولة العربية التي حاولت أن تقيم نظاماً سياسياً عاماً لا يقتصر على مجموعة صغيرة، انحلت قبيل ظهور الإسلام، وأصبح النظام القبلي هو السائد لا في الصحراء فحسب، بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة[٣]. لقد كانت القبيلة تعتبر نفسها مستقلة، استقلالاً تاماً، وفي حالة حرب مع غيرها، يباح لها ولأفرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير. فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم، ودوافعه متعددة؛ منها: الحاجة: فإن إجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة، فتضطر إلى الغزو لتنهب من القبائل الأخرى أموالها ومواشيها. وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة، أو قد يكون نتيجة عامل شخصي؛ كأن يكون رئيس القبيلة حاقداً على قبيلة أخرى لسبب من الأسباب.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب أسماء عدد غير قليل من هذه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٣) د. صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب ١/ ١٠٤ (مطبعة دار المعارف، بغداد ـ ١٩٥٥م).

الحروب أو (أيام العرب) كما كانت تدعى، وقد أدت هذه الحروب إلى حدوث حالة من القلق في الجزيرة، كما أن النهب والأسر الذي يصحبها كان يؤدي إلى عدم الاستقرار[١].

وعن (الندوي) نلخص هذه المؤشرات عن التمزق القبلي والاجتماعي الذي كان يحكم الحياة العربية ويأخذ بخناقها..

كانت العصبية القبلية شديدة جامحة، وكانت تقوم على مبدأ (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فكان أفراد القبيلة الواحدة يتناصرون ظالمين أو مظلومين، ولذا كانت الحرب والغزو والنهب من الأمور التي ميزت الحياة العربية الجاهلية، حتى غدت الحرب من القضايا التي يتلهون بها، فقال قائلهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

وكانت الحروب تثور لأتفه الأسباب، فقد وقعت الحرب مثلاً بين بكر وتغلب ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا لأن أحد أفراد القبيلتين ضرب عنق ناقة تدعى البسوس تعود للقبيلة الأخرى، فاختلط لبنها بدمها، واشتعلت الحرب بين القبيلتين وبلغت حدّاً وصفها فيه أحد أبناء القبيلتين قائلاً: «قد فني الحيّان، وثَكِلت الأمهات، ويُتِّم الأولاد. دموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن». كذلك حرب داحس والغبراء اشتعلت بسبب مسابقة وقعت في سباق للخيل، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر، ونصر كل قبيلة لأبنائها، ومن ثم أسر ونزوح وقتل أطاح برؤوس ألوف من الناس[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه: ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) انظر بالتفصيل: ص ٦١ - ٦٢ من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). الطبعة الخامسة، مكتبة دار العروبة، (القاهرة - ١٩٦٤م).

وقد غدت الحياة العربية لهذه الأسباب عبارة عن سلسلة من الأحقاد والثارات والرغبة في الانتقام أوصى بها الآباء الأبناء. وقد حملت العيشة البدوية والجهل وقلة أسباب الحياة والطمع والجشع والاستهانة بحياة الإنسان، على الفتك والسلب والنهب، حتى افتقد الأمن والاستقرار نهائياً، وغدا العربي لا يدري متى يغتال وأين ينهب، وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم في القوافل، حتى احتاجت الدول الكبرى كالفرس والروم إلى تشديد حراستهم للقوافل التجارية المارة ببلاد العرب[١].

وكان المجتمع العربي يعاني من تمزُّق على مستوى آخر، كسائر شعوب الأرض يومها.. طبقيَّة قاسية وظلم اجتماعي واستعباد من القوي للضعيف، ومن الغني للفقير، ومن السيد للعبد. فكانت هناك في بلاد العرب طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتيازاً عنهم، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة وحتى في بعض مناسك الحج. وتتقدم عليهم في المناسبات الدينية، كما كانت تتلاعب بالمقدسات الدينية في سبيل تحقيق مصالحها الخاصة وحمايتها، وأبرز دليل على ذلك هو (النسيء) أي: تغيير مواعيد الأشهر الحرم حماية للتجارة.. وكان النفوذ والمناصب العليا من الأمور المتوارثة. أما الطبقات الأخرى من السوقة والعوام فكانوا مسوقين لخدمة أسيادهم ومستغليهم[٢].

٣

وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هاجر إلى الحبشة مع إخوانه، يجيب النجاشي وهو يسأله عن سبب مفارقتهم قومهم: «أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦١.

الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا...»[١].

إن الرجل يقول بلسانه، وهو أدرى بطبيعة العصر الذي كان يعيشه: «كنا قوماً أهل جاهلية...» لا يكتفي بهذا بل يعدد (المساوئ) والممارسات التي كانت تدمغ العصر وتنسحب على كافة مساحات الحياة الدينية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية. ولم يكن جعفر بدوياً ممن تترب ثيابه رمال الصحراء؛ كان واحداً من أبناء مكة... زهرة مدائن الشمال وأشدها تحضراً..

وغير جعفر رضي الله عنه كثيرون من شهود العيان... ولنتذكر ما كان يقوله سفراء الجيوش الإسلامية الفاتحة لقادة الفرس وأكاسرتهم، ومنها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قول المغيرة بن شعبة يخاطب كسرى: «أيها الملك! إنك قد وصفتنا صفة لم تكن عالماً بها. فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يشبهه جوع. كنا نأكل الخنافس والعقارب والحيات، فنرى في ذلك طعامنا قبل اليوم على ما ذكرت، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً.. كان خيرنا وأصدقنا وأعلمنا، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله...»..

إن التاريخ، أو الفعل الحضاري، لا يتجَزَّأ. وما يقوله البعض من أن العرب كانوا جاهليين في معتقدهم متحضرين في نواحي الحياة الأخرى.. أمر مردود؛ فالجماعة البشرية عندما تعاني (الانتكاسة) في جانب ما من وجودها، ينسحب الأمر بالضرورة على الجوانب الأخرى..

---

(١) ابن هشام: تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٧٣ - ٧٥ (تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية، القاهرة - ١٩٦٤م)، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٣ - ٢٤ (تحقيق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف - ١٩٦٤م).

إن التجربة التاريخية كيانٌ واحد، فإذا ضرب المرض جانباً منه تداعت له سائر الجوانب بالسهر والألم والحمى.. إننا نجد في النصوص التي استعرضناها تفكُّكاً وتخلفاً؛ ليس على المستوى الديني فحسب بل على كافة المستويات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.. وسيتأكد هذا من خلال المزيد من الشواهد التي ستعرض لها..

إننا إذا ما تذكرنا أن الدين أو العقيدة هو القاعدة التي تنبثق عنها ـ في معظم الأحيان ـ كافة مناحي النشاط البشري، فتتكون من عجينتها وتتلون بمنازعها، أدركنا كيف تكون جاهلية العرب امتداداً محتوماً لعقيدتهم الوثنية المترعة بالسخافات والضلالات والأوهام، باتجاه مناشطهم وممارساتهم كافة..

٤

ماذا كان يحدث؟

الوقائع كثيرة.. والروايات التاريخية غنية بالتفاصيل.. وحيثما التفتنا وجدنا الضلال يمد رواقه المعتم على حياة العرب يومها.. إننا لن نعرف قيمة الشعار الذي رفعه الفاتحون بوجه العالم، ولن تكون جزيرة العرب سوى جزء من العالم «جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».. لن نعرف قيمة هذا الشعار قبل أن ندلف إلى يوميات العصر الجاهلي نفسه لنعاين بعض ما كان يحدث هناك..

يقول ابن الكلبي في كتابه المعروف (الأصنام): «.. كان الذي سلخ ـ بالمكيين ـ إلى عبادة الأوثان والحجارة: أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة. فحيثما

حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة.. ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم»[١]... وحدث وأن أصيب عمرو بن لحي ـ الذي يلي أمر الكعبة ـ بمرض شديد «فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحمَّ بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا. فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة»[٢].

ومن يومها والأصنام تزداد في أروقة مكة وأطرافها بمرور الوقت، والأوثان تتكاثر، والخرافات التي جعلت من الحجارة آلهة تعبد ويتقرَّب بها إلى الله تنتشر وتمتد وتتشابك؛ لكي ما تلبث أن تغطي حياة العربي كلها في عبادته وعمله.. في ليله ونهاره.. في صحوته ومنامه.

ويروح ابن الكلبي يحكي لنا عن الأصنام التي اتخذها العرب آلهة.. سواع.. ود.. يغوث.. نسر.. مناة.. اللات.. العزى.. هبل.. إساف ونائلة.. مناف.. ذو الخلصة.. ذو الكفين.. ذو الشرى.. الأقيصر.. فهم.. رائم.. سعير.. الفلس.. سعد.. اليعبوب.. باجر.. عميانس.. وعشرات.. بل مئات أخرى من الأصنام والأوثان لم تكن منتشرة في الصحراء وحدها، بل على العكس كانت المدن الأكثر تقدماً هي الساحات التي تعجُّ بها وتزدحم.. وحول كل صنم أو وثن حشد من الخرافات والأوهام والأضاليل تراكمت وتشابكت كما تتشابك خيوط العنكبوت في الأماكن المهجورة.. ولا يبخل علينا ابن الكلبي بهذه الترهات..

---

(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كتاب الأصنام ص ٦، (تحقيق أحمد زكي، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٢٤م).

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨

كان إساف يتعشق نائلة في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجاً، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس، وخلوة في البيت، ففجر بها هناك، فمسخا، فأصبحوا فوجدوهما مسخين، فأخرجوهما موضعهما، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب[١].

وكانت الأوس والخزرج ومن يأخذ مأخذهم من عرب يثرب وغيرها يحجُّون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة (على ساحل البحر الأحمر) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلَّا بذلك[٢]، والأوس والخزرج قبيلتان يثربيتان متمدنتان وليستا من البدو الذين يضربون في رمال الصحراء. . والأوس والخزرج ممن هداهما الله إلى الإسلام ـ فيما بعد ـ، وأعز بهما دينه ونصر بهما رسوله ﷺ. . فليس ما يقوله البعض من أن الدين القويم لا ينبت في النفوس الملتوية والعقول الضالة، وإنه ما دام أن الإسلام قد قام بين العرب فهم ـ بالضرورة ـ ليسوا جاهليين!!

وكان هبل في جوف الكعبة، قدامه سبعة أقدح، مكتوب في أولها (صريح) والآخر (ملصق) فإذا شكوا في مولود أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح؛ فإن خرج (صريح) ألحقوه، وإن خرج (ملصق) دفعوه. وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على أي شيء كانت. فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهو إليه[٣]. كأن ليست لهم عقول تهديهم إلى ما يفعلون ولا إرادة حرة تمكنهم من فعل ما يختارون. . وكأن الشك في صحة أنساب أبنائهم كان هو القاعدة، واليقين هو الشذوذ، ولذا كانوا يلجؤون للأقداح علَّها تقطع شكَّهم باليقين.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨.

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً!![١]. وكان لقضاعة ولخم وجذام وأهل الشام صنم يقال له: الأقيصر، فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده. فكان كلما حلق رجل عنده رأسه ألقى مع كل شعرة قبضة من دقيق[٢]. وكان مالك ابن حارثة يبعث به أبوه باللبن إلى ود ويقول: اسقه إلٰهك!! يقول مالك: فأشربه!! ثم رأيت خالد بن الوليد ـ بعد ـ كسره فجعله جذاذاً!![٣] وهو يذكرنا بتلك القبيلة من بني حنيفة التي كانت إذا جاعت أكلت إلٰهها المصنوع من التمر..

«واستهترت العرب في عبادة الأصنام ـ يقول ابن الكلبي ـ فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً. ومن لم يقدر ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم الدوار. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل ثلاثاً أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا يذبحون وينحرون عندها ويتقرَّبون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون إليها، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها»[٤]..

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٨.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٥.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

٥

فماذا عن الممارسات الاجتماعية والأخلاقية؟

لا ريب أنها ستتسرب في خلايا الحياة العربية وتنتشر في جسدها انتشار الدم في الشرايين.. فما دامت قاعدة التصور مهتزة بهذا الشكل المريع، تحمل هذا القدر الكبير من الجهل بقوانين الحياة وحركة الكون وهدف الإنسان في العالم، فإن ما يتمخَّض عنها سيكون مهزوزاً هو الآخر، تسوده الفوضى وانعدام الموازين وانفلات القيم... يقيناً...

إن القرآن الكريم يحدثنا كثيراً عن هذه الممارسات، والرسول ﷺ يقف عندها طويلاً.. وشعراء الجاهلية أنفسهم يحكون عنها ويتغنَّون بها. أما المؤرخون القدماء فقد نقلوا عنها حشوداً من الروايات والأخبار..

إن إثباتها تحصيل حاصل كما يقول المثل لأنها غدت، باعتراف العرب أنفسهم، من المسلمات.. أما نفيها فهو أمر مستحيل.. وما دام الحال كذلك فإنه من غير المعقول ومن غير التاريخي كذلك أن نمنح أنفسنا ـ بالمجان ـ تصوراً عن العصر هو غير ما كان يشهده العصر نفسه ويجري في أوردته وشرايينه.

كان التجَّار يبحثون عن الربح وفق رؤية منفعيَّة صرفة كالذي يشهده الغرب اليوم، دونما أي اعتبار للقيم والضوابط الخلقية، وكانوا يجدون في الاقتراض ذي الفوائد العالية باباً طيباً للربح المنشود، حتى ليتجاوز أحياناً المئة بالمئة في نهاية كل عام، «وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الأوصاف، فقالوا: إن التجار هم الفجار»[١]. فلا نستغرب أن يشن القرآن الكريم حملاته المتوعدة على هذا الصنف من التعامل

---

(١) العلي: محاضرات ص ٥٨.

الاقتصادي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]، ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]، ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾[3].

وكانوا يئدون البنات ـ إذا اقتضى الأمر ـ لهذا السبب أو ذاك، ويغتاظون لولادتهن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾[4]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[5].

يروي الميداني أن الوأد كان منتشراً في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام وقد قلَّ إلَّا في بني تميم؛ فإنه تزايد فيهم قبيل الإسلام، رغم أن جد الفرزدق بذل مجهوداً في إبطاله، حيث كان يشتري البنات اللاتي يريد أهلهن وأدهن. ويقول السكري بأنه اشترى أربعمئة وأربع جواري لافتدائهن من الوأد. ويذكر القرطبي أن الوأد كان في مضر وخزاعة، وقد تردَّد ذكر الوأد في القرآن إلى درجة توحي أنه كان مألوفاً في الحجاز[6]. ويقول الندوي بأن عملية الوأد كانت تتم بقسوة بالغة في معظم الأحيان، فقد يتأخَّر وأد الموؤودة لسفر الوالد وشغله، فلا يئدها

(١) سورة آل عمران، آية ١٣١.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٧٥.
(٣) سورة الروم، آية ٣٩.
(٤) سورة النحل، آية ٥٧ - ٥٩.
(٥) سورة الزخرف، آية ١٧. وانظر: سورة الممتحنة، آية ١٢، التكوير، آية ٨ - ٩، الأنعام: ١٣٦، ١٤٠، ١٥٠، الإسراء، آية ٣١.
(٦) العلي: محاضرات ص ١١٨ - ١١٩.

إلَّا وقد كبرت وصارت تعقل، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم قصصاً مبكية، وكان بعضهم يلقي بالأنثى من مكان شاهق[١].

وكان الزنىٰ منتشراً، وقد مرَّ بنا قبل قليل كيف كان الآباء يلجؤون إلى الأقداح كلما رزقوا بولد للتأكد من أنه من ظهورهم ولقطع الشكوك التي تحوم حول الأصول.. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في عديد من الآيات[٢]، وأشار إليه المؤرخون القدماء في أكثر من موضع.

والراجح أنه كان يكثر في الأسواق والمدن كمكة والطائف، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن بها، والراجح أن أصل معظمهن من الجواري العبيد، وينسب ولد البغي عادة إلى أمه، ولكنه قد ينسب إلى من تختاره أمه ممن اتصل بها[٣].

ويرتبط بالزنىٰ ذلك الزواج الشاذ الذي عرفته الجاهلية وسمي باسم زواج الرهط، حيث يشترك عدة رجال بزوجة واحدة.. وقد حدثنا البخاري عن عائشة رضي الله عنها موضحاً طبيعة هذا الزواج: «أن يجتمع الرجال ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبَّت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل»[٤].

---

(١) ماذا خسر العالم، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) انظر: سورة الإسراء، آية ٣٢، النور، الآيتين ٢ - ٣، الممتحنة، آية ١٢، الفرقان، آية ٦٨، النساء، آية ١٥، ١٩، الأحزاب، آية ٣٠، الطلاق، آية ١، الأعراف، آية ٢٨، البقرة، آية ١٩٦، ٢٦٨، الأنعام، آية ٣٣، ١٥١، المائدة، آية ٥، النساء، الآيتين ٢٤-٢٥.

(٣) العلي: محاضرات ص ١٣٠.

(٤) البخاري: كتاب النكاح، الباب الخامس عشر.

وعموماً، فقد كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة للغبن والحيف، تؤكَل حقوقُها وتُبتَز أموالها وتُحرَم إرثها، وتمنع بعد الطلاق أو وفاة الزوج من الزواج ثانية واختيار زوج ترضاه، وكانت المرأة تورث كما يورث المتاع والدواب، ويتصرف وارثها بها كما يتصرف بالأشياء دون أن يكون لها حرية اختيار الحياة التي تريد. كما أن العرب كثيراً ما يطففون الكيل مع النساء ويستولون على مهورهن، وقد تركزت كل الحقوق الزوجية إلى جانب الرجل ومنعت منها المرأة. وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء دون تحديد. ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث[١].

أما الخمر فقد غدا لانتشاره وشيوعه إلفاً وعادةً، بل جاوز الأمر ذلك إلى أن يكون من المآثر التي يفخر بها العربي ويتغنى بإدمانها ويقرنها بالكرم والسخاء..

ومازال تشرابي الخمور للذة وبذلي وإنفاقي طريفي ومتلدي

ونقرأ في كتاب الندوي كيف كان شرب الخمور والإدمان عليه واسع الشيوع بين العرب، شديد الرسوخ فيهم، وكيف كان الشعراء يتحدثون عن معاقرتها والاجتماع على شربها، وكيف أنها شغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً يرفرف عليها علم يسمى غاية. وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة تجارة مرادفة لبيع الخمر.

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية كذلك، وكان عدم المشاركة في مجالسه يعدُّ عاراً، وكان الرجل في الجاهلية يقامر ـ أحياناً ـ على أهله

(١) الندوي: ماذا خسر العالم، ص ٥٩ - ٦٠.

وماله، فيقعد حزيناً سليباً عندما ينظر إلى أمواله وقد غدت في يد خصمه؛ مما كان يورث بينهم العداوة والبغضاء[1].

٦

وما هي إلا نماذج لما كان يجري يومها من ممارسات تدمغ العصر بالجاهلية.. إن الفكر والروح كان مطموساً عليهما.. والحاسة الأخلاقية كانت تتأرجح بين السلب والإيجاب.. أما الحس فقد تمرَّغ في الشهوات واللذائذ حتى النخاع؛ فلم يبق إلا ثمة هزة قوية توقظ النائمين من غفوتهم وتخرج بهم من ظلمات الجاهلية وضيقها إلى نور الإسلام ورحابة العالم والكون على مداهما..

إن القول بجاهلية العرب قبل الإسلام لا يمثل تناقضاً مع اختيارهم لحمل راية الدين الجديد، فإن فيهم من وراء ظلام الأضاليل والأوهام معدن أصيل، وإن الفجر لينبثق لحظة يدْلَهِمُّ ظلام الليل ويبلغ مداه..

ولقد جاء الإسلام لكي يحقق المعجزة فيخرج بالعرب، وبالناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..




(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٦ - ٥٧.


@Ahmedyassin90

عين جالوت

الواقعة والمغزى

الإعصار

في منتصف عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠ م) بعث هولاكو من الشام برسله يحملون رسالته المشهورة إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز.

كان هولاكو في قمة انتصاراته.. وكان المغول قد اكتسحوا القوى الإسلامية واحدةً بعد الأخرى، وهدموا متاريسها وجدرانها، وسوّوا الطريق أمام جحافلهم المتقدِّمة غرباً.. ما من قيادة إسلامية، من أواسط آسية وحتى أطراف سيناء إلَّا وأذعنت لهم طوعاً أو كرهاً.. وكان السيف الوثني المغولي يعلو على السيوف، وكان الرأس الذي لا ينحني له يطاح به في التو واللحظة.. وحتى أولئك الذين اختاروا السلامة ولووا رؤوسهم عجزاً عن المجابهة وهروباً من الموت.. وقعوا في مصيدة الموت التي كان المغول يتفننون في نصبها، وفي تعذيب خصومهم وهم يتقلَّبون في شباكها.

والذي حدث في بغداد معروف.. ومعروف أيضاً المصير المفجع الذي آلت إليه أكبر قوتين إسلاميتين في الشرق الأوسط: الخوارزميون في بلاد فارس وما وراء النهر، والعباسيون في العراق..

سنوات عديدة والمطاردات الرهيبة لا تفتر بين المغول وبين السلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي.. وصراع الحياة والموت يعرض مشاهده الدامية في مساحات واسعة من الأرض شهدت جهات ما وراء النهر وشمالي الهند وبحر قزوين وشمالي العراق والجزيرة الفراتية والأناضول بعضاً منها..

وعبثاً حاول السلطان أن يتَّصِل بالأمراء المحليين من رفاقه المسلمين في سبيل تشكيل جبهة إسلامية موحَّدة لمقاومة السيل الزاحف.. لأنه ـ هو ـ

عبر سنوات طويلة كان قد مارس خطيئة التمزيق والتفتيت، وإشعال نار الخصومة والعداء بين القيادات الإسلامية بعضها ضد بعض.. وأخيراً استسلم لليأس، وتخلف عنه الكثير من أنصاره، ووجد نفسه في قلّة من أصحابه، وحيداً، غريباً، مطارداً في جبال ديار بكر.. ويذكر معاصروه كيف أن البكاء كان يغلب عليه في الليل والنهار، وكيف أنه هرب إلى الخمر علّه يختبئ وراء غيبوبتها من شبح النهاية القريب.. وما لبث أحد سكان المنطقة أن طعنه بسكين وقضى عليه.

وأما العباسيون فأمرهم معروف.. وما شهدته بغداد حاضرة المسلمين الكبرى، غدا مثلاً يضرب على مداولة الأيام بين الناس!!

ولكن ما شأن الإمارات المحلية؟.

لم يكن مصيرها ـ بطبيعة الحال ـ بأحسن من مصير دول الإسلام الكبرى، بعضها هادن ونافق ودعا إلى السلم وهو في مواقع الضعف والهوان، فلم ينجه ذلك من سيوف المغول، وبعضها الآخر وقف الوقفة التي تقتضيها كرامة المسلم وهو يواجه تسلط الوثنية، فحصدته سيوف المغيرين حصداً، ولقي من صنوف الأذى ما يشير إلى بشاعة الطرائق التي استخدمها المغول لإلقاء الرعب في قلوب الخصوم.. قُتل الكامل الأيوبي أمير ميافارقين في ديار بكر شر قتلة، إذ كان المغول يقطعون لحمه قطعاً ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في بلاد الشام، وكان يتقدم الموكب مغنون وطبالون، وأخيراً علق في شبكة بسور أحد أبواب دمشق، ويقال: إنه بقي هناك حتى تحرير المدينة من قبضة الغزاة.

ووضع الملك الصالح أمير الموصل في دهن ولباد، وألقي في الشمس حتى تحول إلى ديدان بعد أسبوع، فشرعت الديدان تأكل جسده حتى مات

على تلك الصورة البشعة بعد شهر. . أما ابنه الذي كان طفلاً في الثالثة من عمره فشقوه نصفين وعلقوه على ساحل دجلة على مرأى من الناس.

وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارع لا تقل شناعةً وبؤساً. .

وما جرى في مدن الجزيرة الفراتية وشمالي الشام يعد واحداً مما شهدته الكثير من المدن والإمارات على مدى الشرق الإسلامي كله. .

فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام؟

والمؤرخ ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠هـ وهو يستعرض وقائع عام ٦١٧هـ ويسطر بدايات خروج المغول إلى بلاد الإسلام؛ يتحدث بالهول الذي ألَمَّ بعالم الإسلام، وقد كان في مطالعه يومها. . فماذا لو طال العمر بالمؤرخ المذكور وشهد العقود التالية. . ومآسيها؟!

يقول الرجل: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً. إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها؛ لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة

واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل. ولعلَّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا.. إنهم لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم».

الانكسار من الداخل

كان الهجوم المغولي السريع الكاسح قد منح هؤلاء المغيرين سلاحاً نفسياً خطيراً: الرعب الذي كان ينقضُّ على خصومهم من الداخل فيهزمهم قبل أن تلتمع السيوف أمام عيونهم.. إنه السيف الأكثر حدة والذي كان يذبح فيهم القدرة على الحركة.. لقد كان المسلمون يومها، يعانون من شلل تام أو نصفي أفقدهم الأرجل التي يسيرون عليها، والأيدي التي يضربون بها.. وهذه الوقائع التي يرويها ابن الأثير تكاد تكون تجسيداً (كاريكاتيرياً) مضحكاً محزناً للأمر الذي آل إليه الكثيرون من أبناء عالم الإسلام.

يقول الرجل: «لقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل: إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد ولا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، ومضى التتري فأحضر سيفاً وقتله به!! وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر، وقال لنا حتى يكْتِفَ بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم. فقلت لهم: هذا واحد؛ فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف!! فقلت: هذا يريد قتلهم الساعة، فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكيناً فقتلته، وهربنا فنجونا»!!

التحدي

في هذه الظروف السياسية والنفسية، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دماً، وأصداء المعارك التي أثار نقعها سيل لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة، بعث هولاكو برسالته تلك إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز. وكأن الطاغية كان يعرف جيداً خلفية الرعب والانهزام التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيف ينتقي كلماتها... قال: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ..وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب. فأي أرض تأويكم؟ وأي طريق ينجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع.. فمن طلب حربنا ندم، ومن طلب أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من أنذر.. فلا تطلبوا الخطاب وأسرعوا في رد الجواب قبل أنْ تضرب الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم..».

فمن اختار الجهاد يصحبني

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي صنعها كدح القرون الطوال..

كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان لضروراته.. ولكنه الإيمان له منطق آخر.. إنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام فحسب، لكنه يهب بصيرة نافذة تخترق حجب العمى والظلام لكي تطل على الأفق الذي يشع ضياء..

وبالحركة القديرة والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته، فتخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق..

قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم.. وجرى هذا الحوار..

قطز: ماذا ترتؤون؟

ناصر الدين قيمري: إن هولاكو، فضلاً عن أنه حفيد جنكيزخان، فإن شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيبٌ وعار!! ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حكم العقل!! إنه ليس الإنسان الذي يُطْمَأَنُّ إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق. فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل!!

قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات الفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً، وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل.. فلو أننا تقدَّمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلَّا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة..

قيمري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم؛ إذ إنه لا يوثق بعهودهم!

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقضيه رأيك..

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجَّه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كتبغا ـ قائد المغول ـ متضامنين، فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافةً هذا الرأي.. وكان على قطز أن يتخذ قراره.. وقد اتخذه فعلاً.. قتل الرسل وعلَّق رؤوسهم على باب زويلة أياماً، ورفع رأسه متحدياً بمواجهة الطاغية، وأصدر أوامره بالتجهز للقتال (جهاداً في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ)، وإذ رأى تردُّداً وجبناً ونكوصاً من عدد من الأمراء ألقى كلمته المؤثرة: (يا أمراء المسلمين!! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون. وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع علي، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين)..

وما كان للأمراء جميعاً وإزاء قيادة مؤمنة كهذه، إلَّا أن يخلعوا رداء العجز والوهن ومحبة الدنيا.. ويقفوا متحدِّين بمواجهة الفتنة التي إن لم تدفع بالدم فإنها لن تكتفي بضرب الذين ظلموا منهم خاصة!!

اليوم الفصل

انطلقت القوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكة الطريق المحاذي للبحر، وتولى الظاهر بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة (بايدار) الذي أرسل القائد المغولي (كتبغا) الذي أنابه هولاكو للتوجه غرباً يخطره بحركة الجيش الإسلامي، غير أن المسلمين اكتسحوا عساكره قبل أن تصل إليه النجدة.

كان كتبغا في بعلبك فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل، غير أنه منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصارى المحليين؛ حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمر إلى نصابه، وفي تلك الأثناء كان قطز يواصل السير إلى الساحل الفلسطيني، ثم انعطف إلى الداخل ومضى شمالاً لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وأن تقدم إلى فلسطين.

عبر كتبغا نهر الأردن متوجهاً صوب الجليل الشرقي، فبادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي مجتازاً الناصرة؛ حيث وصل في الرابع عشر من رمضان المصادف الثاني من أيلول عام ١٢٦٠ م إلى عين جالوت. وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمنية، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريباً منه. وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. وما لبث كتبغا أن

وقع في الفخ. إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم، ولم تنقضِ سوى ساعات حتى بدا تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية، ووقع قائدهم نفسه أسيراً، وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيداً بالأغلال إلى السلطان حيث احتزَّ رأسه!!

توجه السلطان قطز إلى دمشق بعد أيام قلائل من المعركة، حيث استقبل استقبال الأبطال، وهرب نواب المغول منها بعد أكثر من سبعة أشهر من خضوعها لسيطرتهم، وقام قائده الظاهر بيبرس بملاحقة فلول العدو شمالاً وتطهير البلاد منهم، حيث قتل وأسر عدداً كبيراً، وتمكن خلال شهر واحد من دخول حلب، المعقل الشمالي، وتخليصه من قبضة الغزاة. وهكذا تم تحرير بلاد الشام وفلسطين من أقصاها إلى أقصاها. ومع أن هولاكو أرسل العساكر لاسترداد حلب فإنهم اضطروا إلى الانسحاب بعد أربعين يوماً أجرَوْا أثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقاماً لمصرع كتبغا، غير أن ذلك كان كل ما استطاع هولاكو أن يفعله للانتقام لقائده الشهير..

لقطات من المعركة

تقدم الملك المظفر قطز إلى سائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع!! فلما كان الليل ركب السلطان وحرك أعلامه وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كرهٍ!!

أقسم المظفر لقادة الصليبيين أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر!!

أمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا، وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم من وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم من عقوبة الله. فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد.

عندما اصطدم المعسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقص طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وا إسلاماه»، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيَّده الله بنصره..

مرَّ العسكر في إثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر، والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه» ثلاث مرات: «يا الله انصر عبدك قطز على التتار»، فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم!!

كتب السلطان إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله وخذلانه التتر، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق. فلما ورد الكتاب سر الناس به سروراً كثيراً، وبادروا إلى دور النصارى الذين كانوا من أعوان التتر فنهبوها، وخربوا ما قدروا على تخريبه، وقتلوا عدة من النصارى، واستتر باقيهم، وذلك أنهم في مدة استيلاء التتار همُّوا مراراً بالثورة على المسلمين، وضربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنوا بضرب الناقوس، وركبوا بالصليب، وشربوا الخمر بالطرقات ورشُّوه على المسلمين!!

لما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا، عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك..

وأتم الملك المظفر السير بالعساكر حتى وصل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم؛ فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر إلى الشام. وفي يوم دخوله إلى دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا.. وأنشد بعض الشعراء:

هلك الكفرُ في الشام جميعاً ... واستجدَّ إسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الملك الأر ... وع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم ... فاعتززنا بسحره وببيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائماً مثل واجبات فروضه

الأرقام التي يريدها الله

فليس من المبالغة القول بأن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية والسياسية والعقيدية والحضارية عموماً..

ها هنا في قلب فلسطين وبعد ما يقرب من مضي قرن على معركة حطين الفاصلة، أجرى التاريخ نزالاً لا يقل حسماً بين قوتين متقابلتين: الإسلام والوثنية، التحضر والجاهلية، الالتزام بالقيم والانفلات منها.. وكان انتصار المسلمين يعني انتصار الإسلام على الوثنية، والتحضر على الجاهلية، والقيم على الانفلات.. ومؤشرات الثقة بالنفس والإيمان بالنصر والقدرة على تجاوز الهزائم والنكسات، والتي كادت تصل بالمسلمين إلى نقطة الصفر.. جاءت هذه المعركة المباركة لكي ترتفع بها ثانية صوب الأرقام التي تليق بمكانة المسلمين في العالم.

وها هنا ـ أيضاً ـ نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها العادل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مقابل: الأخذ بالأسباب، والإيمان الواثق العميق بالله وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها. . وبدون تحقق هذا التقابل فلن يكون نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش؛ فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشواهد على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت.

وهذه شهادة المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) يقول: «تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ. . ومن المحقق لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار، فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرَّض له. فلو أن المغول توغَّلوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب، ومع أن المسلمين في آسية كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم؛ فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا المسيحي، لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسية السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام.

على أنه من العبث أن نفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ، فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلاً، إذ إن معركة عين جالوت جعلت سلطة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين، إلى أن قامت الإمبراطورية العثمانية. فما حدث من ازدياد وقوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصرالمسيحي لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا

في غرب آسية على اعتناق الإسلام، وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية؛ لأن المسلمين المظفرين، حسبما تنبأ مقدم طائفة فرسان التيوتون، أضحوا حريصين على أن يتخلَّصوا نهائياً من أعداء الدين».

ولم يشأ رنسيمان أن يشير إلى أن انتماء مغول غربي آسية إلى الإسلام لم يكن بسبب وجودهم في قلب أغلبية إسلامية فحسب، بل، وهذا هو الأهم، لما يملكه الإسلام نفسه من قدرة ذاتية على الجذب والتأثير، وفاعلية دائمة في التغلب على العناصر المناوئة الغريبة واحتوائها.

ومهما يكن من أمر فإن المعركة الفاصلة حققت وحدة بين مصر والشام كانت ذات قيمة استراتيجية كبيرة في صراع الإسلام ضد خصومه التاريخيين.. إذ أصبحت الدرع الذي يقي المسلمين هجمات المغول الشرسة، ويمكنهم ـ في الوقت نفسه ـ من مجابهة التحدي الصليبي ومحاولة استئصال وجوده من الأرض الإسلامية.

وليس ثمة غير الوحدة من طريق

إنها الوحدة نفسها التي سهر عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود على إقامتها، وجاء الناصر صلاح الدين من بعدهما لكي يبني عليها انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين الغزاة، ويحرر القدس.. وها هي معركة عين جالوت تشد الآصرة مرة أخرى، وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم، ودفعهم إلى إحدى اثنتين: الإذعان لكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا.. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخَّض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت السلاجقة من قبل، فأتاحت للقيادة المملوكية الشابة أن تعوِّض عالم الإسلام عما فقده هناك.

وهنالك البعد الحضاري

وثمة من يقول: إن المعركة خدمت أوروبة نفسها وحفظت مدنيتها، كما يرى براون وغيره، وهذا حق، فإن المغول كانوا يطمحون لغزوها وتخريبها، ولكن تقليم أظافرهم في عين جالوت، فضلاً عن عوامل أخرى، صدهم عن المضي في الطريق إلى نهايته.

هذا إلى أن المعركة حققت للحركة الحضارية الإسلامية القدرة على مواصلة المسيرة، وعلى أن تتجاوز محنة الدمار والتخريب الذي شهدته بغداد، فها هي ذي في مصر والشام والمغرب تنجز المزيد من العطاء، وتتحقق بالإبداع في جوانب عديدة وساحات شتى. وليس كما يقال من أن عالم الإسلام دخل عصر الظلمة بعد سقوط بغداد. وليس ابن خلدون وابن كثير وابن تيمية وأبو الفداء والسيوطي والسخاوي وابن القيم والجزري وغيرهم كثيرون سوى إشارات على طريق هذا التحقق المبدع الذي شهدته حضارة الإسلام يومها..

آن الأوان لكي نتعلَّم من التاريخ

لقد شهد تاريخ الإسلام سلسلة متطاولة من المعارك الفاصلة منذ موقعة بدر التي فرَّق الله بها بين الحق والباطل، ومكَّن لدعوته الناشئة في الأرض.. وإلى أن يشاء الله.. ولكن يبقى لمعركة عين جالوت ثقلها وأهميتها وخصوصيتها.. ذلك أنها جاءت وظلام الإعصار الوثني المتحالف مع الصليبية يكاد يطبق على نور التوحيد، ويطمس على أَلَقِهِ، فردَّت على القوة بالقوة، وقارعت سيف الشيطان بسيف الله، وعلمت الناس عموماً والمسلمين خاصةً، بالانتصار الباهر الذي حققته، كيف يكون الإيمان الجاد المعزز بالرؤية الواعية والتخطيط المدروس، قديراً على تحقيق المعجزات.

واليوم وقوى الضلال، المادية والصهيونية والاستعمارية الجديدة، تتجمع مرة أخرى في محاولة شرسة للإطباق على الإسلام عقيدة وشريعة وأمة وحضارة ودولاً..

فإن لم نتعلم من (عين جالوت) سوى حقيقة: أنه بالإيمان والثقة والعزم والتصميم يمكن أن نواجه المحنة ونتفوَّق عليها.. فكفى بذلك من كسب تمنحنا إياه مطالعاتنا الجادة في التاريخ.

وأنه قد آن الأوان لكي نتعلَّم من التاريخ...


@Ahmedyassin90

دراسات بلدانية تراثية

ملاحظات عن تراث الموصل

هنالك في الواقع طريقتان أو منهجان لتحقيق التراث، يتمثل أولهما في القيام بدراسة شاملة للمعطيات التراثية المختلفة عبر نموها الزمني. . أي: متابعة هذه المعطيات في حركتها الدائمة والمتأرجحة بين المد والجزر لتقديم وصف تحليلي لهذه المعطيات ما بقي منها وما اندثر، مع تسليط الضوء على عوامل النمو أو الانحسار التاريخية والجغرافية. وتكاد معظم الدراسات والأبحاث التي قدمت عن تراث الموصل في هذه المرحلة مندرجة تحت هذا المنهج (التاريخي).

إلا أن الضرورات الفنية العملية تقتضي التعامل مع هذه المعطيات وفق منهج آخر يعتمد القيام بمسح ميداني شامل لكل تفاصيل وجزيئات هذه المعطيات التي لا تزال قائمة، وتقديم دراسة ـ أو دراسات ـ شاملة عنها مع عدم الاهتمام بتلك التي عفا عليها الزمن لسبب أو لآخر، اللهم إلا بقدر ما يتعلّق الأمر بتسليط الضوء على ما هو موجود فعلاً.

هذا بالنسبة للمعطيات التراثية المادية، أما تلك التي تتميز بطابع ثقافي أو اجتماعي ـ على وجه التحديد ـ فإن أية محاولة للإلمام بها والإحاطة بدقائقها وتفاصيلها تقتضي اعتماد المنهجين معاً. إذ ما أكثر العادات والتقاليد التي أهملت تماماً في ميدان حياتنا الاجتماعية؛ فهي من ثم بحاجة إلى دراستها تاريخياً، فضلاً عن متابعة ذيولها وبقاياها ميدانياً من أجل تحقيق السيطرة عليها، وإعادة عرضها على الناس بهذا الشكل أو ذاك.

ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع لغرض التوضيح والمتابعة أن نقسم المعطيات التراثية إلى أقسام أربعة هي:

١ـ المخلفات العمرانية.

٢ـ الخطوط والزخارف.

٣ـ المخلفات الشيئية (مواد منقولة، أثاث، ملابس... إلخ).

٤ـ العادات الثقافية والاجتماعية.

وسينصب التركيز على القسم الأول، وهو أكثرها أهمية ولا ريب، مع عدم إهمال الأقسام الثلاثة الأخرى.

(١) المعطيات العمرانية

تركت لنا القرون الأخيرة رغم الإهمال وعدم الاكتراث ورغم عوامل التخريب والتدمير التاريخية والجغرافية الكثير من المعطيات العمرانية: بقايا أسوار وقلاع وأبواب وقصور وقناطر وجوامع وأزقة وحارات ومقاهٍ وحمامات ومطاعم وأسواق وقيصريات وخانات وجسور...

والخطوات المطلوبة من مؤسساتنا الآثارية والتراثية هي حصرهذه المعطيات المتبقية بعد مسحها مسحاً ميدانياً مسحاً شاملاً، وتصنيفها، ثم تنظيم جدول عمل للصيانة والحماية والإظهار بتدرج وفق الأهم فالمهم فالأقل أهمية. ولنبدأ بتقديم بعض الملاحظات حول هذه البقايا وفق أنماطها العمرانية.

أ ـ الأسوار والقلاع والأبواب:

بسبب من النمو السكاني المتزايد للموصل وبخاصة في نصف القرن الأخير كادت أسوار المدينة القديمة وأبوابها أن تختفي فيما عدا بقايا محدودة لا تقارن بما تعرض للزوال... ليس هذا فحسب بل إن مقتضيات هذا النمو المطرد والانفجار السكاني الذي تشهده هذه المدينة، وما يتبعه من امتداد في العمران واتساع في الخدمات تجعل من الصعوبة بمكان السعي لاستعادة الأسوار القديمة بقلاعها وأبوابها، إنها مسألة تكاد تكون من الناحية العملية مستحيلة.. وحيثما اصطدمت المطالب الآثارية بالمصالح العملية الأكثر ثقلاً وإلزاماً كان لابد من التضحية بالأولى، لا سيما إذا كانت قد فقدت المساحات الأوسع من تكوينها.

وقد يخطر على البال ـ ها هنا ـ اقتراح هو بمثابة حل وسط بين الحماية التراثية والمصالح العملية للمدينة، وذلك بمحاولة إعادة بناء جوانب من

السور في الأماكن التي تتيح ذلك، توازيها محاولة أخرى لإقامة عدد من الأبواب القديمة (بحيث لا تتجاوز البابين أو الثلاثة)... وتبقى هذه المساحات المقامة من السور وتلك الأبواب المعاد بناؤها مجرد شواهد ناطقة على ما كان يحيط بالمدينة يوماً من أسوار، وينغلق عليها من أبواب.. دون أن يؤثر ذلك على المتطلبات العملية لنمو المدينة المتزايد.

ثمة معلومات ليست بالقليلة، يستطيع أي باحث أن يلتقي بها بصدد الأسوار والقلاع والأبواب، سواء في المصادر التي عايشت القرون السابقة أو في الدراسات الحديثة التي تناولت جوانب من تاريخ الموصل السياسي أو الحضاري (بما فيها الجانب الآثاري).. وليست مهمتنا هنا ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ هو إضافة بحث جديد إلى ما سبق وأن كُتِب، أو محاولة استعادة هذا الذي كُتِب، وإنما استخلاص نبذة مركزة من تلك الدراسات قد تعين على مواصلة المهمات العملية لحماية التراث وتسلّط عليها المزيد من الأضواء.

كانت الموصل قد استقرت عبر القرنين الأخيرين، وإلى عهد ليس ببعيد بين أسوارها القديمة في الجانب الغربي من نهر دجلة، وكانت هذه الأسوار مبنية على أنقاض الأسوار الأتابكية المخربة وهي تحيط بالبلدة من كل جهاتها، ويبلغ طولها زهاء العشرة كيلو مترات، وارتفاعها عشرة أمتار، بثخن يبلغ ثلاثة أمتار، وكان يحيط بالسور من جميع جهاته خندق واسع يبلغ عمقه سبعة أمتار، ويستمد ماءه من دجلة عند اقتضاء الحال، ويزيد من مناعة هذا السور وجود قلعتين فيه، الأولى في أعلى المدينة تطل على دجلة وتعرف (بباشطابيا) وهي من مخلفات العصر الأتابكي والآخر القلعة الداخلية (إيج قلعة) التي بناها بكر باشا والٍ موصلي عينته الدولة العثمانية (١٦٢٠م) عند ضفة النهر بموازاة بناية البلدية القديمة عند رأس الجسر الحديدي، وفصلها عن المدينة بقناة تحيط بها من الغرب والجنوب، وتأخذ

ماءها من نهر دجلة. . ثم ما لبثت هذه القلعة وأن أهمل شأنها، فتهدَّمت معظم مبانيها، واتخذت أخربتها مساكن، وصارت مستودعاً للذخيرة والعتاد. . أما الآن فلم يتبقَّ منها سوى القليل.

وثمة أبواب تنفتح في هذا السور في أماكن مختلفة؛ يقع أعلاها عند مقبرة قضيب البان (شارع ابن الأثير)، وهو من أقدم أبواب الموصل، كان يعرف بباب سنجار، ثم عرف في عهد الجليليين (١٧٢٦ ـ ١٨٣٤م) باسم (باب الميدان)، ويليه جنوباً (باب البيض). وقد سمي بهذا الاسم لأنه كان يؤدي إلى سوق (البيض)، ويستدلّ من الكتابات التي كانت عليه على أنه جدد سنة ١٦٣١م، ويلي هذا الباب في أقصى نقطة امتداد المدينة من ناحية الجنوب (باب العراق)، وقد سمي بهذا الاسم لاتجاهه ناحية بغداد، ونسبت إليه محلة كبيرة من البلدة، ويخترق هذه المحلة طريق عريض نسبياً يتجه شمالاً نحو مستقيم فيجتاز محلة قديمة تدعى شهر سوق، ويقترب من وسط المدينة (قرب الجامع الكبير)، وقريب من هذا الباب إلى اليمين قليلاً يقع الباب الجديد، وقد فتحه أبو الفضائل (علي أفندي المفتي العمري) أحد أعيان المدينة عام ١٧٢٥م، ويلي هذا الباب حتى التقاء السور بضفة النهر عدة أبواب هي بالترتيب: باب لكش، و باب السراي، وقد فتحه الجليليون في أواخر القرن الثامن عشر، وباب الطوب. وفي نقطة التقاء السور بشاطئ دجلة الغربي يقع باب الجسر، وهو منسوب للجسر الوحيد الذي يربط البلدة بالجانب الشرقي من النهر، ويليه من أعلى باب القلعة ثم باب شط المكاوي، فباب الشط، ويقع الأخير في شمال بقايا قصر بدر الدين لؤلؤ المعروفة بدار المملكة أو قره سراي[1].

---

(١) عماد عبد السلام رؤوف: الموصل في العهد العثماني، ص ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣، نقولا سيوفي: مجموع الكتابات المحررة في أبنية مدينة الموصل (تحقيق سعيد الديوجي) ص ٤١، ١٤٤، سعيد الديوجي: سور الموصل، مجلة سومر، ج٣ سنة ١٩٤٧م، قلعة الموصل، سومر، ج٧، ١٩٥٤م.

ب ـ الدور والقصور :

ها هنا لا يبخل علينا الزمن بحشد كبير من الدور والقصور قادمةً إلينا من قرن مضى أو قرنين وربما أكثر. . . ولكنها بسبب من التغير العمراني السريع للمدينة، وبسبب من عدم الاهتمام الكافي بهذا النمط من الآثار؛ تتعرض للانقراض يوماً بعد يوم، ومع ذلك فثمة ما فيه الكفاية لاختيار شواهد نموذجية منه وشمولها بالعناية والرعاية فمعظم الطرز المعمارية القديمة لا تزال لها بقايا ها هنا أو هناك، ويمكن بعد مسح ميداني لهذه الطرز تحديد النماذج التي سيقع عليها الاختيار، مع ملاحظة أن هذا الاختيار يجب أن يغطي أكبر قدر ممكن من الأنماط المعمارية، وأن يعنى إلى جانب ذلك بالتوزيع الجغرافي الدقيق. . هذا إلى أن بالإمكان اتخاذ بعضاً من هذه الدور أو القصور متاحف لعرض المنقولات التراثية من أثاث وملابس ومواد. . . إلخ مما تركته لنا القرون الأخيرة، أو تركت لنا مواصفاته على الأقل.

إننا نعثر على أنماط من الدور القديمة في بغداد ودمشق والقاهرة، وغيرها من المدن العربية والإسلامية. . . ولكن الموصل، الغنية بأنماط من المعمار القديم لا تزال تنتظر اليد التي تعيد الحياة والحركة إلى عدد منها قبل أن يحيق بها الهدم والخراب. ثمة إشارات وتفاصيل ليست بالقليلة زودنا بها الرحالة والدارسون عن دور الموصل وقصورها، وبنظرة إلى معطياتهم نضع أيدينا على حشد من تلك الإشارات والتفاصيل: نيبور، لانزا، فنشنسو، تيفنو، راوولف، تافرينيه، جاكسون، أوليفيه، بكنغهام، مرزا أبو طالب، جون آشر، وليم هود، بدج، بادجر، الميجر سون، وبكرام ودوبر. . وهذه (المشاهدات) لابد منها لتنفيذ المقارنة المطلوبة بين ما كان وماهو كائن من هذه الدور لتحديد عمرها الزمني ومواصفاتها المعمارية. ولن يتسع المجال ها هنا لايراد كافة التفاصيل، ونكتفي ببعضها فحسب ما دمنا قد أشرنا إلى أسماء الرحالة الذين قدموها.

تميزت دور البلدة بأنها كانت ذات طرازٍ واحدٍ تقريباً، فأكثرها مقببة، وكانت المادة التي تستعمل في بناء المنشآت المدنية تكون عادة من الصخر والطابوق (الآجر) والجص، وقد استخدم الرخام الذي كان يجلب من أطراف المدينة والجبال القريبة بوفرة، في زخرفة المداخل وفي رصف الحجرات، وصنع المحاريب، أما الجدران الأخرى فكانت تبنى بالآجر الأحمر، وكان الأسلوب الغالب في العمارة يعتمد على وجود منطقة مفتوحة من جهة الفناء أشبه بغرفة، ومن الجهة الأخرى تقوم غرف في الطبقة السفلى من الدار تتصل بها غرفة تحت الأرض متقنة البناء تعرف (بالرهرة) وهي تسكن صيفاً اتقاءً للقيظ. وشبيه بهذه الغرف نوع آخر من المباني التي تقام تحت الأرض تستخدم لحفظ الحنطة، تسع الصغيرة منها من مئة إلى مئتي كيس من الحنطة، والكبيرة إلى أربعمئة، وهي عميقة تشبه شكل الناقوس، تحيط بها جدران قوية مطلية بالزفت لحفظ الحنطة التي يحتاج إليها الأهلون، وتسدُّ بعناية، وكان الموصليون يحافظون على سلامة الحنطة بهذه الطريقة مدة طويلة. وتتميَّز دور السراة الأكثر ثراءً بأنها تتكون من (حوش) مربع تحيط به مجموعتان أو أكثر من الحجرات تقع كل حجرتين على جانبي إيوان مرتفع السقف، تحلِّيه زخارف رخامية أو جبسية، كما تتميز بوجود نافورة جميلة تحتل وسط الفناء، ويجري الماء إليها في مجارٍ رخامية مفتوحة، حيث يسقي أثناء مروره خلالها أصصاً من الورد والبنفسج، وفي بعض البيوت الكبيرة كانت النافورة تنشأ في وسط السرداب كما في دار الغازي محمد أمين باشا الجليلي المشيدة عام ١١٦٣هـ.

وكثير من دور المدينة كان مبنياً بالطين، على أن الحيطان كسيت بطبقة من الجص، وكانوا يتخذون للأبواب وتبليط الدور نوعاً من الجبس يشبه لأول وهلة الرخام الرمادي والأبيض، يظهر أن استعماله قديم جداً؛ لأنه كان يستخرج من الأنقاض التي كانت في جنوب المدينة، فالقطع الكبيرة كانت تنحت وتصقل ثانية، والبقية يصنع منها الجص. . وكانت لكل دار سطح أو

سطوح في وضع لايمكن الجار رؤية ما يجري عليها، وتصعد إليها النساء في ليالي الصيف لاستنشاق الهواء. . . ونظراً لندرة الأخشاب فإن معظم هذه الأبنية لها، بدلاً من السقوف الخشبية، سقوف معقودة تقوم فوقها غرف وسطوح معقودة تسند شرفاتها المنبسطة، ومداخل هذه المنازل والشبابيك التي تنفتح على الباحات الداخلية، مُتوَّجَة بطاق من المرمر المجزع، وهو مشيد على الطراز الغوطي المدبب، أو النورماندي المستقيم، أو الأقواس العربية، وتحلى قطعة المرمر في بعض الحالات برسوم أزهار منحوتة وهي متقنة الصنع غالباً. وهناك بعض المنازل البسيطة كان يقطنها النسَّاجون؛ يكون نصفها تحت الأرض، والجزء الأسفل منها مغلق أثناء النهار؛ حيث تقوم فيها المناسج، بينما يرقدون على سطوحها أثناء الليل، والكثير من هذه السطوح مسوَّرة بجدران تحجب الذين ينامون فيها من تعرضهم للأنظار. ولهذه المنازل منافذ مصنوعة من أسطوانات فخارية مجوفة، وفيها مزاغل لتثبيت البنادق في الجدران استعداداً لأسباب الدفاع، ولشدة الحر ينام الأهلون أربعة أو خمسة أشهر الصيف على السطوح آمنين من المطر.

وكانت باحات المنازل من الداخل لطيفة المنظر، وأقل ما يقال عن طرز هندستها: إنه أثري الطابع، فهو مطابق تماماً لما وجد في المنازل الآشورية، ومدخل المنازل الموصلية مبني بشكل يحول دون رؤية ما بداخل المنزل بالنسبة إلى المارة في الشارع أو عند فتح الباب، وهو يفضي إلى صحن الدار الذي يحيط به رواق من طابقين مدعَّم بالأساطين المدورة من المرمر الأزرق المحلى وصحن الدار مبلَّط بالمرمر. وغالباً ما تبلط واجهة الدار بالمواد نفسها. وقناة الماء القذر (البالوعة) تكون عادة في باحة الدار، وفي وسط الصحن قد توجد حديقة صغيرة.

وقد قدر عدد بيوت الموصل في القرن الثامن عشر ما بين العشرين ألف بيت والأربعة والعشرين ألف بيت، وقدرها أحد الرحالين في القرن التاسع

عشر بثلاثين ألف بيت أو أكثر. وكانت تخترق الموصل يومذاك شبكة من الأزقة والطرق معظمها معبَّد خالٍ من الأوساخ، وقد وصفها أكثر من رحالة بأنها كانت مستقيمة، جافة في الصيف وموحلة في الشتاء. وتتألّف البلدة من أحياء وحارات عديدة، وهي تمتاز عن سائر المدن الشرقية من هذه الناحية بفارق واحد، وهو أنه ليست فيها محلات منفصلة عن بعضها بعضاً ذوات أبواب خاصة كما هو الحال في بغداد والقاهرة، بل إن لجميع الطرقات مداخل في نهاياتها، أما المنازل فمستقلة عن بعضها البعض، إلا أنها تزدحم عند أسوار المدينة الجنوبية حتى تشكل قسماً من السور نفسه(١)...

وتشكل القناطر المعقودة عبر الأزقة في أنحاء مختلفة من المدينة ملمحاً من أبرز الملامح التراثية للموصل، ولحسن الحظ فإن الكثير منها ما بين صغير وكبير مستقيم وملتوٍ لا يزال قائماً، ويبدو أن العديد من هذه القناطر حديث عهد نسبياً، ومع ذلك فإن امتدادها الزمني الذي قد يجاوز القرن، وارتباطها العمراني بأزقة الموصل، وحاراتها ودورها يجعلها ذات أهمية كبيرة. ومن السهولة بمكان إحصاء هذه القناطر وتثبيتها واختيار بعضها لكي يشمل بالصيانة المطلوبة من أجل أن يكون شاهداً على واحد من أبرز الملامح العمرانية للبلد.

---

(١) عماد عبد السلام، المرجع السابق، ص ٤٣٧ - ٤٣٩، سهيل قاشا: الموصل في مذكرات الرحالين الأجانب في فترة الحكم العثماني، مجلة بين النهرين، عدد ٢٠ - ٢١، سنة ١٩٧٨م، أحمد الصوفي: خطط الموصل، جزء ٢ ص ٩ - ١٢، دومنيكو لانزا: الموصل في الجيل الثامن عشر، ص ١٠ - ١٣، نيبور، رحلة نيبور إلى العراق، ص ١٠٧ - ١٠٨، دبليو ويكرام: مهد البشرية ص ٧٢ - ٧٣، سير بدج: رحلات إلى العراق ١/٢٨٨، جمس بكنغهام: رحلتي إلى العراق، جزء ١، ص ٦٠ - ٦١، محمد بن أحمد الحسيني المنشى: رحلة المنشى البغدادي، ص ٧٩.

H. Dupre : voyage en perse, p. 117, 148, A Heude : Avoyage p.218 H.C. Luke : Mosul and its Minorities p 20, Sestini : Voyage de constantinople, p. 146, 147, 148.

ج ـ المؤسسات الرسمية للبلد :

وما بقي للموصل من المؤسسات الرسمية (الإدارية) يرجع معظمها إلى فترة قريبة نسبياً، فيما عدا المدارس والمرافق العسكرية بطبيعة الحال. . وقد تعرَّضت هذه البقايا بدورها للزوال؛ حيث أزيحت لتنشأ فوقها مرافق أكثر حداثة، ومع ذلك فلا تزال شواهد من هذه المؤسسات مثبتة هنا وهناك في أنحاء من الموصل، ويمكن بعد مسحها وتثبيتها أن يقع الاختيار على واحد أو اثنين منها لكي تتخذ إزاءها إجراءات الحماية والصيانة. ولا نجد على مستوى الوصف التاريخي لهذه المنشآت شيئاً ذا بال. . وثمة إشارة سريعة إلى المحكمة الشرعية في منطقة باب لكش جنوبي الموصل(١)، وأخرى عن واحدة من أهم الدور العامة المنشأة في عهد الجليليين. . . سراي الحكم الذي أقيم في جنوب المدينة وقريباً من السور، وكان مركز الولاية قبل هذا العهد يقع في القلعة الداخلية (إيج قلعة) المحاطة بالمياه. وقد ثبت نيبور في مخطط للموصل عام ١٧٦٦م موقع هذا السراي قريباً من باب لكش. ووصفه الرحالة سيستيني في عام ١٧٨١م بأنه مكون من عشرين حجرة مستطيلة، عرض كل منها ثمانية أمتار. وذكر دوبريه أنه كان آية في الجمال. وبذلك اقتصرت القلعة على مهمتها الأساسية باعتبارها موقعاً عسكرياً تقيم فيه قوة من العسكر فقط(٢).

د ـ الأسواق والخانات والحمامات والمقاهي والمطاعم :

من خلال جولة سريعة في مناطق الموصل القديمة، يمكن مشاهدة العديد من المرافق الاجتماعية: أسواقاً وخانات وحمامات ومقاهٍ ومطاعم. . تحمل طابعها القديم المميز الذي يمتد بعضه إلى أكثر من قرون ثلاثة،

---

(١) عماد عبد السلام: المرجع السابق، هامش ٢ ص ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣٩ (Dupre op. cit, Sestini, op.cit,p.128).

ولا يتجاوز عمر البعض الآخر القرن الواحد. . وهذه المرافق بطرازها المتميز ومستلزماتها المعمارية ومواد بنائها وأصباغها تسهم إلى حدٍّ كبير بمنح الموصل خصوصيتها التراثية وشخصيتها المتفرِّدة. . . ويزيد هذه المرافق أهمية أنها لا تزال تؤدي دورها بنفس الطرق والأساليب التي عرفتها منذ قرون وقرون. . . ويزيدها أهمية ـ كذلك ـ أن الكثير منها لا يزال قائماً لم يمسّه أذى: بسقوفه المعقودة، بأعمدته الرخامية، بأرضيته المرصوفة، بدكاكه المرتفعة، وبتكييفه الجيد لتقلبات الحر والبرد. . وإنه ليمنح الإنسان المعاصر، مواطناً أو رحالةً، في زمن السرعة والتغيّر العنيف إحساساً بالهدوء والطمأنينة والسكينة، هو بأمس الحاجة إليها. .

ومنذ عقود من الزمن أخذت يد الهدم والتصفية تمتد إلى هذه المرافق الاجتماعية ذوات العدد، لكي تكتسحها وتقيم بدلاً منها منشآت جديدة على طراز حديث لا يمتد إلى الماضي القريب أو البعيد بصلة، ولا تأخذه بشخصية المدينة العريقة شفقة ولا رحمة. . يُزال هذا المقهى أو ذاك. . وتسوَّى هذه القيصرية أو تلك لكي ما نلبث أن نفاجأ ببناء جديدٍ أصم مصبوب من خليط الإسمنت والحديد مكتسب منهما الصرامة والقسوة. . بخطوطه المستقيمة الحادة، وزواياه القائمة وأبوابه المتشابهة كالأرقام. ليس ثمة لمسة من لمسات الفن الجميل أو العاطفة البشرية. . ليس ثمة سوى (المنفعة) من أقرب طريق. . وأرخص طريق. .

وإن لم تتدارك مؤسساتنا الآثارية والتراثية وجه المدينة الأصيل من فناء الملامح وضياع القسمات فمن يتداركه؟! إن مدينة لا تملك وجهاً أحرى بها ألّا تكون. . .

ثمة إشارات عديدة لرحالة زاروا المدينة منذ قرون وقرون، جاؤوا إليها من أماكن شتى، وحدثونا عن ببعض ما شاهدوه. . ومؤرخين من أبناء

المدينة نفسها شاركوا في الوصف والحديث. ونكتفي هنا ببعض الإشارات فلربما تساعد أي جهد يبذل لحماية هذه الآثار وتحديد عمرها الزمني وطرائق خدماتها. . . .

أشار تافرنييه الذي زار الموصل في القرن السابع عشر؛ بأنها تكاد تكون خربة برمتها، وليس فيها سوى سوقين معقودين، وخانين حقيرين، في حين يشير العمري إلى أنه كان فيها في أواخر القرن الثامن عشر خمس وعشرون خاناً، وعشر قيصريات، وعشرون حماماً عاماً، ومئة وثلاثة عشر مجمعاً للقهوة. وقدَّر نيبور عام ١٧٦٦م عدد خانات المدينة بخمسة عشر خاناً؛ منها عشرة خانات كبيرة وواسعة، وقد بنيت خصيصاً لتوفير الراحة، أما المقاهي والحمامات والأسواق فإن القسم الأعظم منها جميل وخلّاب، على أن أجمل وأحسن هذه الأماكن العامة تعود إلى الأسرة الجليلية. . .

ويقدِّر دوبرويه عدد خانات الموصل الرئيسية في أوائل القرن التاسع عشر باثني عشر خاناً؛ منها اثنان هما: خان العلوة، وخان المفتي، لكل منهما ست وعشرون حجرة، ويستعملان أيضاً لأغراض شتى؛ كاعتقال الغرباء، وكمخزن لبضائع الكمارك التي تفرض عليها الرسوم. . ويصف بكنغهام أسواق الموصل بأنها، وإن لم تكن مثل أسواق القاهرة في جمالها إلا أنها تتميَّز بشيءٍ واحد؛ هو كثرة ووفرة ما فيها من الحاجات والضرورات التي تأتيها من المناطق الجبلية، وأفضل أسواق الموصل من حيث البناء والتصميم هو السوق الذي تباع فيه السلع الغالية مما يستورد التجار من أوروبة والهند. أما المقاهي فهي كثيرة وواسعة بشكل عام، والبعض منها قد يحتل أحد الشوارع بطوله، ويمتد مئة ياردة؛ حيث تصفُّ المقاعد على جانبي الطريق الذي يظلله سقف من الحصير. . . أما الحمامات فيقدر بكنغهام عددها في الموصل بنحو ثلاثين حماماً.

وذهب الرحالة هود، وقد زار الموصل في أوائل القرن التاسع عشر، إلى أنه كان في المدينة على أيامه ستة عشر خاناً، تفتح غالباً لاستقبال المسافرين؛ من بينها: عشر أو اثنا عشر ضخمة البناء، وهي مستمرة في تلبية أي طلب لراحة المسافرين بحسب العادات الشرقية. ويشيد هود بحمامات الموصل، ويقول عنها بأنها من أحسن ما رأى، وأن أغلبها مغطى بالرخام وفي غاية اللطف والنظافة.

وتبيِّن لنا الكتابات المحررة على أبنية مدينة الموصل أن أغلب ما شُيِّد في هذه المنطقة من المرافق التجارية يرجع للقرنين الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وكثير من هذه المنشآت كانت وقفاً على المدارس والمساجد والمرافق الأخرى. فمن أوقاف جامع باشا التي أوقفها محمد أمين الباشا الجليلي: الحمام الشهير بحمام (القمرية) وقيصرية الكونجية والخان الفوقاني والقهوة خانة (المقهى) الواقفة قبل قيصرية الكونجية مع سبعة دكاكين في أطراف الحمام والقيصرية الواقعتين في السوق الكبير. وكانت قيصرية العبدالية في سوق باب السراي مع البناء الذي يعلوها والذي يحيط بها؛ وقفاً مؤبداً على المدرسة العبدالية، والنصف الآخر على المدرسة الأحمدية، وفي سوق اليمنجية كان هنا ثلاث قيصريات مكتوب عليها (هذا ما أنشأه... الوزير أحمد باشا في شهر رجب ١٢٣٠هـ)[١].

هـ ـ الجوامع والكنائس والمدارس:

ها هنا أيضاً ترك لنا الزمن حشداً كبيراً من آثار القرون القريبة الماضية: جوامع، وكنائس، ومدارس، ومكتبات. ونستطيع القول بأن ما بقي لنا من

(١) عماد عبد السلام، المرجع السابق، ص ٤٥٣ - ٤٥٦، سيوفي: المرجع السابق، ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، تافرنييه، العراق في القرن السابع عشر، ص ٥٨، ٥٩، نيبور، المرجع السابق، ص ٤٤٤. بادجر: النساطرة، مجلة بين النهرين، عدد ٩ - ١٠ سنة ١٩٧٥م.

هذه المنشآت لا يقارن بالمنشآت الأخرى في تنوُّعه وكثافته.. وبجولة سريعة في أنحاء الموصل القديمة يستطيع المرء أن يحكم على ما تمتاز به المدينة من غنى في هذا المجال.. وثمة إحصائيات قديمة تمنحنا بعض الأرقام: المؤرخ الموصلي أمين العمري قدَّر عدد دور العبادة والثقافة بثمانية عشر جامعاً، وثلاثمئة مسجد، وأربع عشرة مدرسة، بكنغهام قال: إنها تبلغ زهاء خمسين مسجداً؛ منها ثلاثون صغيراً ومتوسطاً، وعشرون كبيراً، بادجر أشار إلى أنه يوجد في الموصل على أيامه أكثر من تسعة عشر جامعاً، ومئتين وخمسين مسجداً، واثنتي عشرة مدرسة[١].

وعلى أية حال فقد ترك لنا الباحث الأستاذ سعيد الديوجي في بحثيه القيمين: (جوامع الموصل في مختلف العصور)، و(مدارس الموصل في العهد العثماني) دراسات تفصيلية عن جوامع الموصل ومساجدها ومدارسها (ومكتباتها ضمناً) عبر العصور المختلفة والعصر العثماني بوجه خاص، ونستطيع أن نستخلص قوائم يمكن أن يحال عليها ما هو قائم فعلاً من هذه المنشآت لأغراض المسح والدراسة التراثية، ولتنظيم خرائط يستهدى بها للحماية والصيانة. وسوف لا تتحدد القوائم المدرجة أدناه بالقرون الثلاثة الأخيرة، بل ستمتد لكي تغطي العصر العثماني كله، وسنكتفي باسم المنشأة وتاريخ إنجازها، أما التفاصيل فيمكن أن نجدها في البحثين المذكورين؛ حيث لا مبرر للتكرار..

(١) الجوامع:

١	جامع العمرية	٩٧٠هـ
٢	جامع خزام	حوالي ٩٨٠هـ
٣	جامع الجويجي	١٠٦٠هـ

(١) سومر، مجلد ١٨ سنة ١٩٦٢م.

٤	جامع الشيخ عبد الله	١٠٨٢هـ
٥	جامع الشيخ محمد (ويسمى أيضاً المنصورية)	١٠٨٤هـ
٦	جامع التوكندي	١٠٨٥هـ
٧	جامع عمر الأسود (ويسمى أيضاً شهر سوق)	١٠٩٣هـ
٨	جامع السلطان أويس	١٠٩٥هـ
٩	جامع العنبار بعد سنة	١١٠٥هـ
١٠	جامع الأغوات	١١١٤هـ
١١	جامع الباشا	١١٦٩هـ
١٢	جامع الإمام الباهر قبل سنة	١١٧٨هـ
١٣	جامع الرابعية	١١٨٠هـ
١٤	جامع سوق العلوة	١١٨١هـ
١٥	جامع الزيواني	١١٩٣هـ
١٦	جامع بكر أفندي	١٢٠٥هـ
١٧	جامع جمشيد	١٢١٢هـ
١٨	جامع المحموديين	١٢١٢هـ
١٩	جامع النعمانية	١٢١٣هـ
٢٠	جامع الشهوان (شيخ الشط)	١٢١٩هـ
٢١	جامع باب الطوب	١٢٣٠هـ
٢٢	جامع النبي شيث	١٢٣٢هـ
٢٣	جامع زقاق الحصن	١٢٣٥هـ
٢٤	جامع القلعة	١٢٣٧هـ
٢٥	جامع الخاتون	١٢٤١هـ
٢٦	جامع عبد الله بك	١٢٨٥هـ
٢٧	جامع حمو القدو	١٢٩٨هـ

هذا هو أهم ما تبقى للموصل من جوامع أنشئت عبر العصر العثماني، علماً بأن عدداً من هذه الجوامع يعود في بداياته الآثارية إلى فترات أبعد بكثير؛ حيث كان مسجداً أو مشهداً أو مزاراً، واعتمدنا ها هنا تواريخ تحويله إلى جامع، وهذا يقودنا إلى المساجد نفسها،تلك التي لا يزال حشد كبير منها ينبث في أنحاء الموصل؛ بعضها يمكن تحديد تواريخه بدقة، وبعضها الآخر يصعب معه التحديد، بل يغدو مستحيلاً لانعدام الدليل أو ضياعه، ومهما يكن من أمر فإن بمقدور المؤسسات المعنية من خلال القيام بعملية مسح شاملة للمساجد الصغيرة: أن تنظم ثبتاً دقيقاً يتضمن قدراً من التفاصيل قد يخدم المهمة التي تستهدفها..

علماً أن المؤرخ الموصلي أمين العمري أشار في (منهل الأولياء) إلى أن عدد مساجد الموصل على عهده بلغ ثلاثمئة مسجداً. ويذهب الرحالة بادجر إلى قريب من هذا الرقم؛ فيشير إلى أنه بلغ مئتين وخمسين مسجداً، وثمة إشارات عن الجانب المعماري للجوامع والمساجد قد تخدمنا فيما نحن بصدده: شيد كثير من دور العبادة بالرخام أو زين به، وتبارى النحاتون في تصميم المحاريب الرخامية الجميلة وزخرفتها والكتابة عليها. فكان محراب جامع الأغوات مثلاً يتألف من أسطوانتين عليهما قوس يكون واجهة المحراب، ويتألف سقف المحراب من مناشير رخامية مزخرفة تعلوها زخارف تشبه القوقعة، وفي داخله وحدات رخامية؛ منها ما هو على شكل محراب أيضاً منحوت في داخله قنديل بارز وحوله ما يشبه زهرة الأقحوان، وفي محراب جامع الشيخ عبد الله نجد أن الفنان استخدم شكل أوراق الكرم في زخرفته، وكان مما شاع أيضاً في ذلك العهد من الفنون المعمارية، طراز القبة المزدوجة وهي عبارة عن قبتين متداخلتين بينهما فراغ، وقد عرف هذا الطراز في مساجد ومشاهد مختلفة، وهو في حقيقته ليس إلَّا إحياءً لعنصر آخر من عناصر الفن المعماري الأتابكي في الموصل.

وفي بعض الأحيان كان يستعاض عن القبة الثانية (الخارجية) بمناشير من الجص والحجارة لتحفظ القبة الداخلية التي تحتها من عوارض الطبيعة. وأغلب قباب الموصل التي ترتقي إلى هذا العهد مبنية على شكل نصف كرة تستند على أساطين من الرخام تزينها مقرنصات (دلايات) من الجص، وكثيراً ما دهنت هذه القباب من الداخل، وزينت بزخارف جبسية ناتئة على شكل دائرة تتوسطها النجمة الآشورية (زهرة الأقحوان).

ولأغلب مساجد هذا العهد مئذنة مشيدة بالآجر، ومستديرة الشكل من الأعلى، في حين تستند إلى قاعدة مربعة من الأسفل، وتتميز مآذن الموصل عن مثيلاتها في بغداد ـ خلال الفترة ذاتها ـ بأنها لم تعتمد في حليتها الزخرفية على استعمال مادة القاشاني الملون؛ إلَّا في مواضع قليلة جداً حافظت على الطرز القديمة المتمثلة بالتزيين بالزخارف الآجرية الناتئة، فكانت المئذنة تنقسم إلى عدة مساحات يشغل كل واحدة منها نوع مختلف من الزخارف الهندسية، ويزينه أحياناً نطاق من الرخام تكتب عليه بعض الآيات القرآنية. أما القسم الأسفل فيبنى عادة من الحجر الأسمر المعروف (بالحلان)، ويستند إلى قاعدة مربعة الشكل، وتمتاز المئذنة الموصلية في هذه الفترة أيضاً ببساطة المقرنصات (الدلايات) الحاملة لحوضها (شرفتها) كما إن المسافة بين قاعدة المئذنة وحوضها تكون أطول بكثير عما هي عليه بين الحوض وقمتها، وهذه الظاهرة كسابقتها من مميزات المآذن القديمة في العراق.

وزودت أغلب مساجد هذا العهد بسقايات خاصة (سبيلخانة)، وشيدت في بعضها نافورات الوضوء كما فعل مثلاً محمد باشا الجليلي في ساحة جامع الزيواني، وكثيراً ما كان يتخذ الشعر وسيلة لتزيين مثل هذه الأماكن وتسجيل أسماء مؤسسيها عليها[1].

---

(١) عماد عبد السلام: المرجع السابق ص ٤٤٤-٤٤٧، سعيد الديوجي: جوامع الموصل ص ١١٥، ١٥٣، ١٦١، ١٧٧، ١٩٠، ١٩٧، ٢٠٦، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٤٠،، سيوفي: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٢) أما الكنائس التي يرجع بناؤها إلى العصر العثماني فهي:

١ـ الكنيسة الإنجيلية (في شارع الفاروق)، شيدت عام ١٨٠٤م.

٢ـ كنيسة الأرمن (في محلة حوش الخان)، شيدت عام ١٨٥٧م.

٣ـ كنيسة مار توما الرسول (في محلة خزرج)، شيدت عام ١٨٦٣م.

٤ـ كنيسة سيدة الانتقال، وتعرف باسم كنيسة الطاهرة الجديدة تمييزاً لها عن القديمة (في محلة حوش الخان)، شيدت عام ١٨٦٥م.

٥ـ كنيسة اللاتين (منطقة الساعة)، شيدت عام ١٨٧٢م. وإلى جوارها دير الآباء الدومنيكان، ومعهد مار يوحنا الكهنوتي الذي فتح أبوابه عام ١٨٧٨م.

(٣) المدارس:

١ـ المدرسة اليونسية (في جامع النبي يونس عليه السلام) حوالي سنة ١٠٠٠هـ.

٢ـ دار القرآن اليونسية (في جامع النبي يونس عليه السلام).

٣ـ مدرسة طه أفندي محضر باشي (بجوار جامع النبي جرجيس) قبل سنة ١٠٣٩هـ.

٥ـ مدرسة جامع الجويجي (في محلة باب الجديد) بعد سنة١٠٦٠هـ.

٦ـ المدرسة العبدالية (في جامع العبدال) ١٠٨٠هـ.

٧ـ المدرسة الخزامية (في جامع خزام) ١١٠٧هـ.

٨ـ المدرسة الجليلية (في جامع الأغوات) ١١١٤هـ.

٩ـ مدرسة الحاج محمود النومة (في مسجد خزرج) ١١٢٠هـ.

١٠ـ مدرسة محمد آغا السعرتي (في مسجد أولاد السعرتي في محلة الإمام عون الدين) ١١٢٧هـ.

١١ـ دار القرآن الجرجيسية (في جامع النبي جرجيس) ١١٢٩هـ.

١٢ـ مدرسة ياسين أفندي المفتي (إمام خان المفتي) قبل سنة ١١٣٥هـ.

١٣ـ المدرسة الأمينية (في جامع الباشا) ١١٦٩هـ.

١٤ـ مدرسة مسجد الشيخ أبي العلا (جددت عمارته سنة ١١٧٦هـ).

١٥ـ دار القرآن الرابعية (في جامع الرابعية) ١١٨٠هـ.

١٦ـ المدرسة المحمدية (في جامع باب البيض، أو الزيواني) ١١٩٣هـ.

١٧ـ مدرسة مسجد العراقدة (في محلة حمام المنقوشة) ١١٩٤هـ.

١٨ـ مدرسة الحاج زكريا (في محلة باب الجديد) ١٢٠١هـ.

١٩ـ المدرسة الأحمدية (في محلة باب السراي) ١٢٠٢هـ.

٢٠ـ مدرسة يونس أفندي (بجامع بكر أفندي بمحلة رأس الكور) ١٢٠٧هـ.

٢١ـ مدرسة محمود باشا الجليلي (في جامع جمشيد) ١٢١٢هـ.

٢٢ـ مدرسة بكر أفندي (في جامع جمشيد) ١٢١٢هـ.

٢٣ـ المدرسة النعمانية (في جامع النعمانية) ١٢١٣هـ.

٢٤ـ مدرسة جامع التوكندي (قبل سنة ١٢٧١هـ).

٢٥ـ مدرسة أحمد باشا الجليلي (في جامع النبي شيث) ١٢٣٢هـ.

٢٦ـ المدرسة الحسينية ودار القرآن (بالقرب من حمام قره علي) ١٢٣٢هـ.

٢٧ـ المدرسة المحمودية (مقابل جامع الرابعية) ١٢٣٢هـ.

٢٨ـ مدرسة جامع باب الطوب ١٢٣٢هـ

٢٩ـ مدرسة ابن الحبار (غربي جامع النبي جرجيس) ١٢٣٥هـ.

٣٠ـ مدرسة الحجيات (بجوار حمام باب البيض) قبل سنة ١٢٣٩هـ.

٣١ـ مدرسة يحيى باشا الجليلي (خلف جامع النعمانية).

٣٢ـ مدرسة الخاتون (في جامع الخاتون) ١٢٤١هـ.

٣٣ـ مدرسة الخزندار (بجوار مسجد الصوفية) ١٢٤١هـ.

٣٤ـ مدرسة الجلبي (تعرف أيضاً بمدرسة الصائغ) ١٢٥٠هـ.

٣٥ـ مدرسة ابن الخياط (على شارع سوق الشعارين في فناء مرقد الإمام إبراهيم).

٣٦ـ مدرسة محمود بك محضر باشي (في محلة باب النبي بالقرب من مسجد الشالجي) رممت المدرسة سنة ١٢٦٤هـ.

٣٧ـ مدرسة الحاج حسين بك (في جامع السلطان ويس) ١٢٦٩هـ.

٣٨ـ مدرسة مسجد بنات الحسن ١٢٧٠هـ.

٣٩ـ مدرسة عبد الله بك (في جامع عبد الله بك في رأس الكور) ١٢٨٥هـ.

٤٠ـ مدرسة الحاج عبد الله حمو القدو ١٢٩٨هـ.

٤١ـ مدرسة عثمان الديوجي (في مسجد منصور الحلاج في محلة باب المسجد) ١٣٢٧هـ.

تلك هي أهم المدارس التي نستطيع أن نستخلصها من بحث الديوجي المذكور بعد إعادة ترتيبها زمنياً، وكثير منها لا يزال قائماً، ويمكن عن طريق مسحها تثبيت ما هو مهم منها لغرض صيانته، وربما إعادة الحياة التدريسية فيه لتبقى شاهداً على طرائق التدريس في العصور السابقة.

وثمة إشارات للديوجي في بحثه يتوجب إيرادها هنا؛ لأنها تتعلق بتخطيط المدرسة يومها «إنها غرفة كبيرة واحدة مستقلة الشكل، تتألف من جناحين، يكون على يمين الداخل إليها الجناح الخاص بالمدرس، وفي صدر هذا الجناح تكون خزانة الكتب، أما الجناح الثاني على يسار الداخل، فيكون للطلاب الذين يدرسون في المدرسة. وقد يلحق بمثل هذه المدرسة غرفة أو أكثر تكون على جانبيها، وهي لسكنى الطلاب الفقراء الذين يقيمون في المدرسة، وينفق عليهم مما أوقف لهم، وأمام هذه الغرف تكون أروقة تجمعها، مثل مدرسة الحاج حسين بك في جامع السلطان أويس، وكان لبعض المساجد التي لا ترتبط بالمساجد بنايات خاصة لكل منها، وتتألف المدرسة من غرفة للتدريس وأخرى لمعيد الدرس ـ إن كان بها معيداً ـ، ويكون داخل غرفة المدرس الكتب، أو تكون الخزانة في غرفة داخل المدرسة، كما في المدرسة الحسينية، ويكون في المدرسة غرفة أو أكثر لسكنى الطلاب الفقراء الذين يدرسون فيها، وقد يكون فيها مصلى لأداء الصلوات فيه كما في المدرسة الأحمدية ومدرسة الحاج زكريا وغيرهما، وبجانب غرفة التدريس مدفن باني المدرسة، بينهما شباك، كما في المدرسة الحسنية، ومدرسة الحجيات، ومدرسة يحيى باشا الجليلي، والمدرسة الأحمدية وغيرها[١].




(١) سومر مجلد ١٨ سنة ١٩٦٢.

(٢) المعطيات الأخرى

الخطوط والزخارف:

حفظ لنا تاريخ القرون الأخيرة للموصل كنوزاً غنية حقاً في مجال الخط والزخرفة. . ابتداء بتلك التي فرشت على صفحات الكتب والمؤلفات المخطوطة والمزخرفة، وانتهاء بتلك التي امتدت على واجهات العمائر وأفاريزها، مروراً بتلك التي زينت بها مواد الزينة وأثاث الاستعمال اليومي. . وقد أتيح لهذه الكنوز من يعكف على حمايتها بالتسجيل والتصوير والتثبيت، وبالتاريخ والتحقيق والتحليل. ولن ننسى هنا جهود نيقولا سيوفي في كتابه (مجموع الكتابات المحررة على أبنية الموصل)، الذي زادته تحقيقات الديوجي وإيضاحاته أهمية، وداود الجلبي في كتابه (مخطوطات الموصل)، ويوسف ذنون في عدد من دراساته، وسالم عبد الرزاق في كتابه الشامل ذي المجلدات التسعة (فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف في الموصل)، وسعيد الديوجي في عدد من كتبه وأبحاثه وبخاصة (أعلام الصناع المواصلة) وغيرهم. والذي يتوجب عمله بهذا الصدد هو إخراج فهرست أو (كتالوك) يضم جناحيه على تراث الموصل الخطي، أو نماذج خطية منه على الأقل، تعرض مصنفة ومدروسة بالاعتماد على ذوي الخبرة في هذا الميدان، وذلك أسوة بما فعله بعض الباحثين الغربيين، وليس كتاب (سوفاجيه) الشهير ببعيد. .عن الأذهان.

المخلفات الشيئية (المنقولة):

من مواد منزلية وأثاث وملابس وتحف فنية وأدوات تجميل وزينة، أو عمل وإنتاج. . ونقود. . إلى آخره.

وهنا يتوجب القيام بإحدى اثنتين: إما دراسة (أو دراسات) شاملة لتحديد أنماط الأشياء المنقولة المراد حمايتها و عرضها.. أو مسح عملي لما تبقى من هذه الأشياء، ثم دراستها فيما بعد لغرض الإفادة من هذه الدراسة في العرض والصيانة.

وما أكثر الأشياء التي خلفتها القرون الأخيرة.. ولا تزال في بيوت الكثير منا بعض هذه الأشياء التي كانت إلى عهد قريب جزءاً أساسياً من حياة الموصل اليومية، وحاجاتها المنتشرة في كل مكان.. وثمة فضلاً عن هذا، شهادات الجيل السابق التي يتوجب تسجيلها قبل أن يتعرض للزوال.. ففيها الكثير مما يعين على المهمة ويختصر الطريق.. وهناك أيضاً شهادات الجغرافيين والرحالة الذين زاروا الموصل وتحدثوا عما شاهدوه، ووقفوا بعضاً من الوقت أمام اثنتين مما قد يفيد في تحديد ملامح عدد من (الأشياء) التي سادت حياة الموصل اليومية عبر القرون الأخيرة، الصناعات التي ازدهرت في المدينة يومها، والأزياء التي شاعت، وهذه نتف مما شاهدوه، نورده على سبيل المثال لا الحصر:

لاحظ الرحالة البريطاني جاكسون عام ١٧٦٧ م أن سكان الموصل أكثر اهتماماً بالصناعة من أي قوم آخرين رآهم عند مغادرته الهند. ويقول: هنالك عدة مصانع يجري تشغيلها، وبعض مصنوعاتها تتفوق على الصناعات الأوروبية، فسروج الخيول وأحزمتها تظهر جد أنيقة بوجه خاص، وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالأزهار، فيظهر أحسن وأمتن من السجاد الذي نصنعه نحن. وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال والنساء معاً، ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد، وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن يتم إرسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة. وكان الرحالة إيفز الذي زار الموصل سنة ١٧٥٨م قد أشاد بمصانع النسيج الموصلي (الموسلين)، وأثنى على جودة

مصنوعاتها، كما أشار الرحالة نيبور سنة ١٧٦٦م إلى وجود مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وطباعة النقوش على المنسوجات، وامتدح أوليفية في رحلته عام ١٧٩٤م إنتاج هذه المصانع، وذكر أنها منتشرة في المدينة، وأن قيمة منسوجاتها كبيرة؛ حيث إنها تباع في حلب للتجار الفرنسيين، فتشحن من هناك إلى مرسيليا. ونوه رحالة عديدون آخرون بالصناعة الموصلية؛ مثل: دوبريه، وبكنغهام، وبادجر[١].

وبصدد الأزياء يقول بكنغهام: يلبس الصغار من الأولاد عادة قرطاً ذهبياً في إحدى الأذنين، بينما تلبس الفتيات حلية أشبه بالزر مرصعة بأحجار صغيرة من الفيروز معلقة بثقب في الأنف. ويرتدي الرجال اللباس التركي ما خلا العمائم والطرابيش العالية مثل أهالي سورية بدلاً من القاووق التركي، والسراويل المصنوعة من نسيج صوفي جميل عوضاً عن الثياب القطنية، وتلبس النساء رداءً واقياً أزرق اللون أشبه بما هو مألوف في مصر وسورية، ويستعملن حجاباً من نسيج شعر الخيل الأسود يغطي الوجه كله، وبذلك يظهرن بمظهرٍ لا يثير الاهتمام غالباً.

ويقول الرحالة الآخر بادجر: يختلف لباس الذكور في الموصل قليلاً عن سائر مدن الشرق، وللإناث نوع خاص من غطاء الرأس يتكوَّن من برنس مربع حشي في قمته وسادة مستديرة سمكها إنشان، تحتها صفيحة مذهبة توضع على الرأس والرقبة مع عدة أوشحة فتشكل نوعاً من العمامة، وهي للنساء الشابات مرصعة بالجواهر وسائر الأحجار الكريمة، ولهن عصائب ذوات زوايا ذهبية وقلائد مصنوعة ببراعة، وأقراط وخلاخل وأساور، كل ذلك يثير إعجاب الجنس اللطيف، ليس هنا فحسب بل في كافة أنحاء

---

(١) عماد عبد السلام: المرجع السابق، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، جاكسون: مشاهدات بريطاني في العراق، ص ١٠٥، نيبور: المرجع السابق، ص ١٤٤، بكنغهام، المرجع السابق، ص ٦٦، بادجر: النساطرة، مجلة بين النهرين، عدد ٩ - ١٠ سنة ١٩٧٥م.

العالم، غير أن كل هذه الزينة محفوظة للبيت؛ لأن المرأة لا تخرج منه بدون الملاءة الزرقاء المتعددة الألوان، والخمار المربع المصنوع من شعر الحصان الذي يشد على الرأس، ويتدلى حتى الحنك فيغطي كل أجزاء الوجه[١].

وها هنا أيضاً يمكن أن يزودنا كتاب الديوجي (أعلام الصناع المواصلة) بالشيء الكثير، وهناك بصدد النقود الملحق رقم ١٥ من كتاب (الموصل في العهد العثماني) لعماد عبد السلام رؤوف[٢]؛ والذي يتضمن عرضاً مفصلاً قيماً عن أهم العملات المستخدمة في الموصل في العهد العثماني، وأقيامها..

العادات والتقاليد الاجتماعية :

تبلورت في الموصل عبر قرونها الأخيرة ممارسات وفعاليات اجتماعية تميَّزت بدقائقها وتفاصيلها، وأصبحت ـ بمرور الزمن ـ جزءاً أساسياً من حياة المدينة وشخصيتها، وملمحاً واضحاً من ملامحها التراثية. .

هنالك تقاليد الختان، الزواج، البناء. . هنالك احتفالات رمضان والأعياد والمولد النبوي الشريف والمناسبات الدينية الأخرى. . هنالك العادات والفعاليات الحرفية المختلفة في الأسواق والمقاهي والحمامات. . . هنالك ألعاب الصبيان في الأزقة والحارات. . وهنالك ـ أيضاً ـ تقاليد المواسم والفصول وبخاصة في الربيع والخريف؛ حيث تغدو السفرات والنزهات القصيرة أو الطويلة جزءاً أصيلاً من ممارسات المدينة. . وغير هذه التقاليد والفعاليات الشيء الكثير. .

والآن وعبر العقود الأخيرة والتغيُّر الاجتماعي السريع والعنيف الذي تشهده المدينة من خلال الاتصال المتزايد بمعطيات الحياة الغربية

(١) سهيل قاشا: المرجع السابق، ص ٣٩٤ - ٣٩٥، بكنغهام: المرجع السابق، ص ٦٦، أحمد الصوفي، المرجع السابق: ٢/ ٣١ - ٣٢.

(٢) ص ٥١٥ - ٥٦٥.

المعاصرة.. الآن بدأت هذه التقاليد تذوب وتتلاشى بالتدريج، وهي تجر ذيولها تاركة الميدان لتقاليد أكثر حداثة.. وبعد قرن أو قرنين ستختفي كلية عن العيان..

ومن ثم تغدو محاولة دراستها وتثبيتها ضرورة من ضرورات حماية التراث الموصلي من الانقطاع والضياع.. ويتوجب أن تبدأ هذه المحاولة بالسرعة الممكنة؛ لكي تبنى بشكل أكثر دقة وأمانة على شهادات بقايا الجيل الذي عاش هذه التقاليد أو رآها وسمعها.. وعلى ضوء الذبالة التي لا تزال تشتعل في بعض هذه الممارسات الاجتماعية قبل أن تخفق الخفقة الأخيرة وتنتهي إلى انطفاء[(١)].

هنالك محاولات قامت بها مؤسسات التربية في مهرجانات الربيع لتثبيت بعض ملامح هذا التراث وعرضه فنياً.. ولكن المطلوب هو أكثر من هذا.. دراسة تاريخية وميدانية علمية تسعى إلى تثبيت الوقائع وتنظيمها وتحليلها بأكبر قدر من الدقة والموضوعية.. وهي مهمة تقع ولا ريب على عاتق المؤسسات الآثارية والتراثية، من أجل أن تستكمل ـ بها ـ سائر دراساتها ومحاولاتها لإظهار التراث الموصلي، وحصره، وحمايته.

محاولات أولية لأغراض التنفيذ :

وهذه ـ أخيراً ـ بعض الملاحظات الأولية لأغراض التنفيذ العملي يمكن أن يضاف إليها ـ مستقبلاً ـ ملاحظات ومؤشرات أخرى:

---

(١) قدم أحمد الصوفي في كتابه (خطط الموصل): ٢/ ٢٢ - ٦١ فصلاً عن (ملامح المجتمع الموصلي) تضمن الكثير من الحقائق والعروض القيمة، إلا أن محاولته امتدت لكي تشمل هذا المجتمع عبر التاريخ في عصوره المختلفة، الأمر الذي يجعل تثبيت هذه الملامح عبر القرون الأخيرة فحسب في بحث آخر أمراً ضرورياً.

١ـ تنظيم إحصائية شبه نهائية بالموجود حالياً من معطيات تراثية موصلية تتعلق بالعصر العثماني على وجه التحديد، إذ إن ما سبق يمكن أن يندرج تحت الاهتمامات والمتابعات الآثارية.

٢ـ تدوين ملاحظات مركَّزة حول الأهمية التاريخية لهذه المعطيات.

٣ـ وضع تخطيطات (نموذجية) لهذه المعطيات لأغراض الحماية والتثبيت التاريخي والنشر.

٤ـ رسم واعتماد خارطة (أو خرائط) شاملة لهذه المعطيات تبين مواقعها في الزمان والمكان، وما تم أو سيتم بصددها. ومن أجل تنفيذ هذه الخارطة يتوجب القيام بعملية مسح ميداني لتراثيات القرون الأخيرة.

٥ ـ الاتصال بالمؤسسات ذات العلاقة والتنسيق معها وفق الصيغ التالية:

أ ـ حماية المعطيات التراثية من الهدم أو التخريب أو الاندثار التدريجي.

ب ـ بناء مجمعات حديثة تعتمد التصاميم الموصلية القديمة أسوة بما يحدث في مدينة بغداد، فتحقق بذلك الأهداف العمرانية والجمالية والتراثية، ويمكن أن يضم مجمع كهذا ـ يستحسن أن يقام في باب الطوب ـ المنشآت التالية: داراً، وخاناً، ومقهىً، ومطعماً، وسوقاً (أو قيصرية) ومسجداً، وقناطرَ، وأبواباً، وفق الطُّرز التراثية.

ج ـ استملاك عدد من هذه المعطيات وتحويلها إلى مرافق تراثية بعد صيانتها.


@Ahmedyassin90

فلسطين في الأدب الجغرافي العربي

قُدم هذا البحث إلى المؤتمر الثالث

لتاريخ بلاد الشام «فلسطين»

الذي عقدته الجامعة

الأردنية بعمان

في نيسان

١٩٨٠م

١

كسبت فلسطين أهميتها في معطيات الأدب الجغرافي لأكثر من سبب: فهناك مكانتها الدينية العريقة، ووجود العديد من المنشآت العمرانية والبقايا الآثارية التي تخدم هذا الجانب وترفده، وهناك موقعها الجغرافي الممتاز؛ فهي بوابة القادمين من آسية في طريقهم إلى إفريقية عبر مصر، وبالعكس، وهي إحدى المنافذ الآسيوية المطلة على البحر المتوسط باتجاه أوروبة، وهي الممر الذي لابد من اجتيازه، منذ قرون وقرون، لمعظم القوافل المتحركة من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وهي فضلاً عن هذا وذاك ذات مكان متوسط عبر مساحات العالم القديم على المستويين السياسي والعسكري والحضاري، وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية لاختيارها منطلقاً، أو مستقراً، للعديد من النبوات.. وهنالك ـ أيضاً ـ العديد من الظواهر الطبيعية المتفرِّدة التي تسترعي الانتباه.. وثمة ـ أخيراً ـ الغرائب التي أولع بعض جغرافيينا بشدِّ الرحال إليها، ووصفها بقدر من المبالغة التي تخرج بالظاهرة الطبيعية عن أبعادها المعقولة، وتضيف إليها من سحر الخيال وتهويل الشائعة ما يجعلها أقرب إلى الخرافة.. بل إن بعض هذا الذي وصف بغرائب المشاهدات لا أساس له مطلقاً من الصواب وإنما هو وليد تشوّق للمجهول، أو تفسير شاذٍ لا تقبله مسلمات العقل ولا يصمد للنقد.

ومهما يكن من أمر فإن فلسطين قد شدَّت، عبر قرون تألُّقنا الحضاري، أنظار الكثير من رحالتنا وجغرافيينا، فشدوا إليها الرحال، هدفاً بحد ذاته، أو طريقاً إلى أهداف جغرافية أخرى.. وقدموا لنا عبر رحلاتهم ومشاهداتهم الكثير من المعطيات التي يستطيع الباحث المعاصر أن يتكئ عليها إلى حد كبير لتقديم صورة (فلسطينية) مستمدة من هذه المعطيات.

وثمة منهجان اعتمدهما الرحالة والجغرافيون لعرض مشاهداتهم الفلسطينية؛ يقوم **أولهما** على عرض أفقي يحاول أن يشمل، بنظرة واحدة، كافة الظواهر والأنشطة، فيمسها مساً خفيفاً بنوع من الوصف الخارجي السريع الذي يعطي الملامح العامة البارزة على السطح، ولا يكاد يتوغل إلى الأعماق للبحث عن التفاصيل والجذور... بينما يقوم **المنهج الثاني** على التوغُّل العمقي أو العمودي في هذه الظاهرة أو تلك، وعبر هذا النشاط أو ذاك، وهو بهذا قد يغفل الكثير من الظواهر والأنشطة الأخرى المنتشرة هنا وهناك، ولكنه يعوض عن ذلك بتقديم مادة أغزر ورؤية أكثر نفاذاً للمسائل التي يقف عندها؛ حيث يمنحنا ما فقدناه هناك: التفاصيل والجذور.

والمنهجان ـ في حقيقة الأمر ـ يكمل أحدهما الآخر، وكلاهما عون للباحث المعاصر الذي يسعى إلى استخراج صورة عن فلسطين من بطون المصادر الجغرافية، تتميز بالامتداد والعمق في الوقت نفسه، ومع ذلك فإن هنالك الكثير من الثغرات تركت عبر هذه المصادر دون سعي جاد لسدها.. وهنالك مساحات واسعة في هذا الجانب أو ذاك من جغرافية فلسطين نبحث عمن يلقي عليها ضوءاً فلا نكاد نعثر على شيء.

وأيّاً ما كان الأمر فإن الطريقة التي سيعتمدها هذا البحث الموجز الذي تقتضيه مناسبة كهذه، يقوم على تجاوز الوصف البلداني السهل، الذي يقف عند كل موقع أو مدينة فلا يغادرها إلا بعد أن يسرد كلَّ، أو جلَّ، النصوص التي قدمتها المصادر الجغرافية عنها، سواءً كانت تعالج أمراً ثقافياً، أم ممارسة دينية، أم نشاطاً اقتصادياً، أم تنظيماً إدارياً.. إلى آخره. وهذا سيؤول ـ بطبيعة الحال ـ إلى تجزيء الوصف، وتقطيع الجغرافية الفلسطينية إلى وحدات بلدانية مستقلة كأن ليس بين الواحدة منها وشقيقاتها رابطة من نسب أو قربى.. فضلاً عن أن الكثير من الظواهر والأنشطة كوصف البحر الميت، أو نهر الأردن، مثلاً، وكالحد يث عن النشاط الزراعي، وما شابه

ذلك من مسائل عامة، تخرج عن نطاق بلد بعينه، وتقتضي متابعة في المجال الأرحب. . مجال الخارطة الفلسطينية على امتدادها.

ومن ثم فليس هناك غير طريق واحد يقوم على متابعة المظاهر والأنشطة وقطاعات الحياة المختلفة على امتداد الخارطة الفلسطينية؛ من أجل منحها حياةً أكثر تدفقاً وغنىً، ومن أجل تكوين صورة عن فلسطين أكثر أصالة وامتداداً، وأقدر على الإفصاح عن شخصية الموقع الجغرافي إذا صح التعبير.

وسوف يتم ـ بطبيعة الحال ـ تجاوز كل ما هو زمني (تاريخي) موقوت في روايات جغرافيينا؛ لأنه من قبيل المتغيرات سريعة المدى، والتأكيد ـ بدلاً من ذلك ـ على المعطيات الجغرافية الأكثر ديمومة، ما دام أن هذا البحث ينصب على الجغرافية لا على التاريخ، رغم أن المصادر التي اعتمدت في هذا المجال تمزج ـ أحياناً ـ بين هذا وذاك.

ومن أجل أن نتصور مدى انتشار المادة الجغرافية لمصادرنا العربية على المساحة الفلسطينية لا بدّ أن نسترجع في الأذهان آخر التقسيمات الإدارية لفلسطين قبل أن تجتاحها جائحة الصهيونية ومن ورائها الاستعمار، فهي تتضمن كافة المدن الرئيسية بأسمائها العربية الأصيلة المرادفة لما تضمنته المصادر. . وإليكموها:

أولاً: اللواء الشمالي، ويضم الأقضية التالية:

(١) حيفا (مركز اللواء) (٢) عكا (٣) زمارين (٤) الناصرة (٥) طبرية (٦) صفد.

ثانياً: لواء السامرة، ويضم الأقضية التالية:

(١) نابلس (مركز اللواء) (٢) جنين (٣) طول كرم (٤) بيسان.

ثالثاً: لواء القدس ـ يافا، ويضم الأقضية التالية:

(١) القدس (العاصمة) (٢) رام الله (٣) بيت لحم (٤) أريحا (٥) يافا (٦) الرملة.

رابعاً: اللواء الجنوبي، ويضم الأقضية التالية:

(١) غزة (مركز اللواء) (٢) المجدل (٣) الخليل (٤) بئر السبع[١].

٢

عن جغرافية فلسطين الطبيعية التي تنعكس معطياتها سلباً وإيجاباً على سائر المظاهر والأنشطة، نلتقي بحشد من النصوص تتراوح بين الإشارة المركزة العابرة، وبين العرض التفصيلي. ويقف جغرافيونا عند جوانب منها فيطيلون الوقوف: بحيرة طبرية، المياه المعدنية الساخنة، نهر الأردن، الغور، البحر الميت، خليج العقبة... الجبال والصحارى والعيون..

تمتد بحيرة طبرية ـ حيث تقع على ساحلها مدينة طبرية المستطيلة ـ مسافة اثني عشر ميلاً (ستة فراسخ)، أما عرضها فستة أميال (أكثر من ثلاثة فراسخ قليلاً)، تكتنفها الجبال، وإلى قريب منها جبل الطور، وعلى جانب من شواطئها تتفجر ينابيع حارة شديدة الحرارة، وبخاصة عينها الجنوبية «التي تسلق البيض وتنضج اللحم»، تسمى (الحمامات)، وماؤها ملحي كبريتي يتخذ علاجاً طبيعياً لترهل البدن والجرب الرطب وتزايد البلغم[٢]. وثلاثة أيام للاستحمام بهذا الماء تكفي ـ في نظر ابن الوردي ـ لكي تشفي أهل البلاد مما يعانونه[٣].

---

(١) حسين روحي: المختصر في جغرافية فلسطين، القدس ١٩٣٢م.

(٢) الدمشقي: نخبة الدهر ص ١١٩، ٢١١ - ٢١٢، إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٢.

(٣) خريدة العجائب ص ٢٤، وانظر: العمري: مسالك الأبصار: ١/ ٨٢.

يصفها ابن جبير بأنها بحيرة مشهورة، وبأن ماءها عذب، ويتحدث عن تضارب الأقوال في سعتها وهو إذ يشير إلى مبلغ طولها بأنه ستة فراسخ، ومبلغ عرضها بأنه ثلاثة فراسخ أو أربعة؛ يعلق بالقول بأن هذه أقربها إلى الصحة «لأننا لم نعاينها»[١]، وهذه لاريب واحدة من اللمسات النقدية في معطيات جغرافيينا سنلتقي بها بين الحين والحين، تخفف في نزوعها العلمي بعضاً من الغلواء التي يعانيها بعض هؤلاء الجغرافيين وهم يتحدثون عن عدد من المظاهر والأشياء بما يخرج بها عن حجمها الحقيقي. ويقول ياقوت بأنه رأى طبرية مراراً «وهي كالبركة يحيط بها الجبل، ويصب فيها فضلات أنهار كثيرة تجيء من جهة بانياس والساحل والأردن، وينفصل عنها نهر عظيم (هو نهر الأردن). . ومدينة طبرية في لحف الجبل مشرفة على البحر، وماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة، ثقيل، وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون بأنه قبر سليمان بن داود (عليهما السلام)، وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً»[٢].

ويحدد الاصطخري موقع المنابع الحارة بأنه على نحو فرسخين من مدينة طبرية، حتى إذا ما انتهى الماء إلى المدينة ظل محتفظاً بحرارته الشديدة رغم ما دخله من الفتور بطول السير، وإنه ليمعط الجلود إذا ما طرحت فيه، ولا يمكن استعماله إلا بإضافة ماء بارد إليه، وفي داخل المدينة يستفاد من هذا الماء في الحمامات وأماكن الوضوء[٣]. ويشير العمري إلى أن هذه المياه الحارة تعرف بحمام طبرية «وللناس فيها أكاذيب. وهي صورة تنور مثل تنور الكلس، تكون سعته نحو عشرة أذرع تقريباً،

(١) رحلة، ص ٢٩٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٥١٥، وانظر: ياقوت: المشترك ص ٣٨.
(٣) مسالك الممالك ص ٥٨ - ٥٩، وانظر: ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٠، وابن الوردي: خريدة ص ٢٤، واليعقوبي: البلدان ص ٣٢٧.

يخرج منه ماء يدير حَجَرَيْ رحا، مهما وضع فيه احترق لإفراط حرارته، وقد استخرج منه جدول في عرض الجبل يمتد نحو ألف ذراع تقريباً لتقل، ببعد المدى، حرارته. ثم يأتي بيتين مسقوفين بالحجر؛ أحدهما لاستحمام الرجال، والآخر لاستحمام النساء. والحمة ماؤها مملوح مكبرت»[١].

ويمنحنا المقدسي المزيد من التفاصيل عن هذه المياه الحارة وعن فوائدها الصحية؛ فيقول بأن عين طبرية تعم أكثر حمامات البلد، وقد شق إلى كل حمام منها نهر، بخاره يحمي البيوت فلا يحتاج إلى وقيد. وفي البيت الأول ماء بارد مقدار ما يتطهرون به، ومن اغتسل بالماء الحار ثلاثة أيام، ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسور أو أي علة تكون، برأ بإذن الله، وسمعت الطبرانيين يذكرون بأنه كان هناك لكل علة بيت، فكان من به تلك العلة واغتسل فيه برأ[٢]..

وينصبُّ في البحيرة نهر الأردن، الذي يسمى أحياناً بالشريعة، وهو نهر غزير الماء ينحدر من الشمال قريباً من بانياس، حتى إذا بلغ الحولة كوَّن هناك بحيرة تسمى بحيرة قدس نسبة إلى مدينة عبرية لا تزال بقاياها في الجبل على ما يقوله الدمشقي، وفي هذه البحيرة تنصبُّ أنهر وعيون أخرى، وما يلبث نهر الأردن أن يغادر الحولة باتجاه طبرية؛ حيث يصب فيها، ثم يجتازها إلى الغور، حيث يلتقي فيه بعد قليل نهر خارج من الحمة التي تشتهر عينها هي الأخرى بأنَّ فيها منافع كثيرة؛ حيث يقصدها الناس لعلاج الكثير من الأمراض..

وكلما مضى نهر الأردن في طريقه جنوباً كلما غزرت مياهه إذ ينصبُّ فيه

(١) مسالك الأبصار ١/ ٨٩.

(٢) أحسن التقاسيم ص ١٨٥، ولمزيد من التفاصيل عن بحيرة طبرية وعيونها انظر: ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٧، والهروي: الإشارات في معرفة الزيارات ص ٢٦، ٢٨، وياقوت: معجم البلدان ٣/ ٥٠٩، والقزويني: آثار البلاد ص ١٤٥، وأبي الفدا: تقويم البلدان ص ٢٤٣.

من عيون بيسان وغيرها الشيء الكثير، حتى إذا بلغ البحر الميت ألقى عصا الترحال فيه لا يغادره أبداً[١]. إن الشريعة هذا «كأنه في الاعتبار فلك الدائرة، يطلع أول الغور من بحيرة قدس، ويتوسط بحيرة طبرية، ويغور في بحيرة زغر: البحر الميت»[٢].

وينقل ياقوت بأن الأردن هو أردنان، الأردن الكبير والأردن الصغير؛ «فأما الكبير فهو نهر يصبُّ إلى بحيرة طبرية، بينه وبين طبرية لمن عبر البحيرة في زورق، اثنا عشر ميلاً، تجتمع فيه المياه من جبال وعيون، فتجري في هذا النهر، فتسقي أكثر ضياع جند الأردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور، ثم تنصب تلك المياه إلى البحيرة التي عند طبرية، ويمر عند الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياعها وقراها الكثيرة، ومنها بيسان وقراوا وأريحا والعوجاء وغير ذلك. وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين. ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً، فيسقي ضياع الغور، ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) في طرف الغور الغربي»[٣].

يمتد الغور ما بين بحيرة طبرية والبحر الميت، وتقبع فيه مدينتا بيسان وأريحا (التي يسميها الاصطخري: ريحا) وغيرهما، ويصفه بأنه يقع بين جبلين وبأنه غائر في الأرض جداً وأن به عيوناً وأنهاراً ونخلاً، ولاعتدال مناخه لا يرى سقوط الثلج فيه أبداً، وبعض الغور من حد الأردن، فإذا ما جاوزت بيسان كان من حد فلسطين، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام: الأعلى والأوسط والأسفل، ويبلغ طوله نحواً من أربعة أيام، وعرضه في مداه الأوسع نحو من يوم واحد وينبثق عنه ممر طويل يقود السالك فيه إلى أيلة

(١) الدمشقي: نخبة الدهر ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٨ - ١٠٩، الإدريسي: نزهة المشتاق ص ١.
(٣) معجم البلدان ١/ ٢٠٠، وانظر: العمري: مسالك ١/ ٨٢.

على خليج العقبة، ولكثرة ما تميز به الغور من الخصائص الحسنة عده الجغرافيون «من نواحي العمران الجليلة»[(١)]، رغم أنه وخم شديد الحر غير طيّب الماء[(٢)].

وتختلف تسمية البحر الميت بين جغرافي وآخر، فبعضهم يسميه بحيرة زغر، نسبة إلى صغرى بنات لوط (عليه السلام)[(٣)]، أو البحيرة المالحة، أو المقلوبة، وبعضهم الآخر يسميهم البحيرة المنتنة، وفي أحيان كثيرة يسمى بحيرة لوط، تلك التي «لا يعيش فيها حيوان، ولا ينبت حولها نبات». ويدهش الدمشقي كيف أن ماءها لا يزيد في الشتاء بسبب زيادة المياه الكثيرة المنحدرة إليها، وكيف أنه لا ينقص في الصيف!! ويحاول أن يعثر على الجواب، يقول: «للناس في مغيض الماء فيها أقوال، فمنهم من قال: إن هذا الماء بحر أرض بعيدة يخرج فيها فيسقيها، ويزرعوا عليه ويشربوا منه مسيرة شهرين، ومنهم من قال: إن أرضها شديدة الحرارة ومعادنها كبريتية ملتهبة لا تزال ترقأ بخاراً متحللاً يخلقه الماء الداخل ويتحلل بخاراً كذلك. وقيل: بل هي خسفة من الأرض لا قرار لها إلى البهموت، والله أعلم»[(٤)].

ويفسر ياقوت سبب تسميتها بالمنتنة، ويبالغ في الوصف بما يخرج عن حدود الواقع، فيقول: «هي بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شيءٍ ولا يتولد فيها حيوان، ورائحتها في غاية النتن، وقد تهيج في بعض الأعوام فيهلك كل ما يقاربها من الحيوان الإنسي وغيره، حتى تخلو القرى المجاورة لها زماناً إلى أن يجيئها قوم آخرون لا رغبة لهم في الحياة فيسكنونها، وإذا وقع

(١) الاصطخري: مسالك ص ٥٦، ٥٨ - ٥٩، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٧ - ١٥٨، ١٦٠، الدمشقي: نخبة ص ٢٠١، أبو الفداء: تقويم ص ٢٢٦.

(٢) ياقوت: معجم ٣/ ٨٢٢، المشترك ص ٣٢٦.

(٣) ياقوت: معجم ٢/ ٧٥٢.

(٤) نخبة الدهر، ص ١٠٧ - ١٠٨.

في هذه البحيرة كائن لم ينتفع به كائناً ما كان، فإنها تفسده، حتى الحطب فإن الرياح تلقيه على ساحلها فيؤخذ ويشعل فلا تعمل النار فيه»[١].

وإذ يبدو البحر الميت ملعوناً لا فائدة منه في نظر ياقوت. . نراه في نظر بعض الجغرافيين الآخرين يقدِّم عدداً من الفوائد، فهو طريق سهل للمواصلات؛ حيث تجتازه بين الحين والحين سفن صغيرة يسافر فيها إلى تلك الناحية، وتحمل عليها الغلات والثمار إلى أريحا وسائر أعمال الغور[٢]، وهو يقذف بين الحين والآخر بمادة سوداء لينة تخرج من قاعها فيأخذها السكان، ويقطعونها ويحملونها إلى المدن والولايات حيث تستعمل في حماية الأشجار، وبخاصة الكروم والتين، من الدود والحشرات، بإطلاء جذوعها بهذه المادة التي تباع ـ كذلك ـ لدى العطارين لكل من يريد أن يبعد دودة تصيب البذور تدعى النقرة[٣].

ويعدد عبد الغني النابلسي منافع هذه المادة القيرية المسماة بالحمر أو القفر اليهودي نسبة إلى قرية كانت هناك، فيضيف إلى فوائده الزراعية فوائد طبية عديدة، فهو يستخدم لتضميد الكسور والأوجاع العارضة في النساء، وللسعال المزمن وضيق النفس ونهش الهوام وعِرْق النساء والإسهال المزمن والنزلات ووجع الأسنان، فضلاً عن أن دخانه يطرد الحيات والعقارب والهوام، ويتحدَّث كيف أنه يستخرج ـ كذلك ـ من ساحل البحر الميت؛ حيث يصفى مما اختلط به من الحصا والتراب بالماء الحار والنار، وكيف أن رائحته تشبه القير العراقي[٤].

يبلغ طول البحيرة سبعة فراسخ، وعرضها الأعرض نحو ثلاثة، «وقيل:

(١) معجم في ١/٥١٦.
(٢) الإدريسي: نزهة ص ١.
(٣) ناصر خسرو: سفرنامة، ص١٧، وانظر نخبة الدهر، ص ٨٢، وأبو الفدا: تقويم ص ٢٢٨.
(٤) الحضرة السنية في الرحلة القدسية، ص ٢٣٤.

إن طولها ستون ميلاً، وعرضها اثنا عشر ميلاً؛ وهو الصحيح»[١]. . وكانت تقبع على شواطئها ـ يوماً ـ خمس مدن؛ هي: صعدة، صعبة، عمرة، دوما، وسدوم، والأخرى أكبرها وأصلها في الفساد[٢]. .

وهنالك فضلاً عن البحيرات الكبيرة آنفة الذكر، إشارات للعديد من العيون والجداول التي يستقي منها أهل فلسطين ماءهم العذب. . فثمة عيون عسقلان[٣] وعيون أريحا[٤] وجنين[٥]، وأنهار وعيون بيسان التي اشتهرت بخصبها[٦]، وعين الماء التي تتفجر من الصخر في الخليل، وينقل ماؤها عبر مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية؛ حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين[٧]. . وعين دير الطور، بين طبرية واللجون، والتي تنبع بماء غزير. . ونهر عوجاء بين أرسوف والرملة قريباً من الساحل[٨]. . وعيون قيسارية الجارية[٩].

وهنالك جب طبرية الكبير العميق الذي تنبع مياهه من باطن الأرض، وترفدها ـ كذلك ـ مياه الأمطار[١٠]. وفي شرقي عكا تتفجر عين تعرف بعين البقر ينزل إليها في درج[١١]. . فضلاً عن نهر المقطع الصغير الذي ينبع من

(١) الدمشقي: نخبة ص ١٢١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢١.
(٣) إسحاق بن حسين: آكام المرجان ص ٢٢، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٥٩ - ٦٠.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٤.
(٥) ياقوت: معجم ٢/ ١٨٠.
(٦) أبو الفداء: تقويم ٣٤٣.
(٧) ناصر خسرو: سفرنامة ص ٣٢.
(٨) العمري: مسالك ١/ ٣٣٧، ياقوت: معجم ٣/ ٧٣٣.
(٩) ناصر خسرو، المصدر السابق ص ١٨.
(١٠) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٢.
(١١) المصدر السابق نفسه، ص ٦١، وانظر: ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢.

جبل الطور ويصب في البحرين بين حيفا وعكا[١]، والنهر العذب الذي يشق عجلون فيشطرها شطرين[٢]. . وتأخذ نابلس ماءها من شبكة من القنوات[٣]. وهناك عين سلوان في القدس التي يصفها الدمشقي بأنها «تجري بمقدار معلوم، وبعد مضي كل ثلاث ساعات وأكثر تمد حتى يرتفع ماؤهافي مجراها نحو ثلاث قامات عما كان يجزر، ثم يعود إلى حاله بعد نحو ست ساعات، ثم تمد وتجزر كذلك إلى أبد الدهر»[٤].

ويصف المقدسي كثرة الماء فيقول: «ليس ببيت المقدس أمكن من الماء. . قَلَّ دار ليس فيها صهريج أو أكثر، وبها ثلاث برك عظيمة عليها حماماتهم. وفي المسجد عشرون جباً متبحرة. وقَلَّ حارَة إلَّا وفيها جبٌّ مسبَّل، وقد عمد إلى وادٍ فجعل بركتان يجتمع إليهما السيول في الشتاء، وشق منهما قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملأ صهاريج الجامع وغيرها»[٥].

ويقف الدمشقي طويلاً عندما يسميه بالثجان على طريق أيلة للقادمين من غزة «وهو وادٍ فيه عيون ماء كثيرة تمد في أيام الصيف قليلاً، فإذا كانت أيام الشتاء مدَّت كثيراً. وفي هذا الوادي عين بقدر السطل النحاس الذي يسقون فيه الخيل، وهو في بلاطة كبيرة مدورة مقدار ستة أذرع في ستة، وفيها مقر محفور فيه ماء حلو ملؤه، لا يخرج منه شيء البتة، فإذا ملأت الأسطل نظرت المقر كأن لم يؤخذ منه شيء، والناس جميعاً يملؤون منه. . كان هذا دأبه دائماً على مر الأيام والليالي، وأنا رأيت هذا عياناً، وملأت منه وأهل

(١) التطيلي: رحلة ص ٩٣، وانظر: هامش رقم (٢) من الصفحة نفسها.
(٢) ابن بطوطة: تحفة النظَّار ص ٦١، الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١.
(٤) نخبة الدهر، ص ١١٩، ياقوت: معجم ٣/ ١٢٥، وانظر: خسرو سفرنامة ص ٢١.
(٥) نخبة الدهر، ص ١٦٥، ياقوت: معجم ٤/ ٥٩٣، ٥٩٨.

الركب من غزة وغيرهم، وذكر ذلك العرب أيضاً، قال لي من أثق بكلامه: نحن وآباؤنا وأجدادنا من العرب ملأنا من هذا وهو على هذه الحالة»(١).

ولا ينسى الجغرافيون ـ بطبيعة الحال ـ أن يشيروا إلى المقادير الوافرة التي تتلقاها فلسطين من مصدر آخر للمياه، وذلك هو الأمطار(٢).

٣

وكان من الطبيعي أن تتمخض هذه الوفرة من المياه عن نشاط زراعي كثيف، بلغ خراجه السنوي في منتصف القرن الثالث للهجرة نصف مليون دينار(٣)، واستمر على هذا المعدل حتى القرن التالي(٤). وقد لفت هذا النشاط نظر الجغرافيين فأشاروا إليه، وقالوا عن فلسطين بأنها من أخصب بلاد الشام وأكثرها عمراناً على صغر رقعتها(٥)، ثم وقفوا عند أشهر مدنها فحدثونا عما شهدوه فيها من زروع وأثمار.. فالقدس تعد من أخصب بلدان فلسطين(٦)؛ تحيط بها بساتين وكروم ومزارع وأشجار وفاكهة وزيتون(٧). وتنتشر حولها قرى كثيرة الزروع والأشجار(٨)، وقد ازدهرت فيها زراعة الأترج واللوز والجوز والرطب والتين والموز فضلاً عن السماق(٩)، وعلى

(١) نخبة الدهر ص ١١٩ - ١٢٠.
(٢) انظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٦، وابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٧ - ١٥٨، إسحاق ابن الحسين: آكام المرجان ص ١٣، ابن الوردي: خريدة ص ٢٣، والدمشقي: نخبة ص ٢١٢.
(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ٧٨.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨٩.
(٥) الاصطخري: مسالك ص ٥٨، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٩.
(٦) الاصطخري: المصدر السابق نفسه ص ٥٦ - ٥٧، ابن حوقل، المصدر السابق نفسه ص ١٥٨.
(٧) إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ١٣.
(٨) ابن عبد الحق: مراصد ص ١٣٢.
(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٥٦، ياقوت: معجم ٤/ ١٠٠٥.

بعد فرسخين منها شهد ناصر خسرو أربع قرى متجاورة سميت الفراديس لكثرة حدائقها وبساتينها وجمال موقعها[١]، وبسبب من كثرة خيراتها رخصت فيها الأسعار، سيما وأن معظم مزروعاتها تعتمد في سقيها على مياه الأمطار.. إلا أنَّ أكثر مزروعات القدس وفرة، ولا شك، الزيتون الذي يستخرج منه زيت الزيتون، ولما زار ناصر خسرو القدس قال: إن فيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنٍّ من زيت الزيتون، يحفظونها في الأحواض والآبار ويصدرونها إلى أطراف العالم[٢].

ولا تقلُّ عنها نابلس كثرة أشجار وبخاصة الزيتون الذي يستخرج زيته ويحمل إلى مصر ودمشق وغيرهما، فضلاً عن البطيخ الأصفر المنسوب إليها والذي اشتهر بطعمه اللذيذ[٣]، ويصفها الدمشقي بأنها قصر في بستان[٤]. وبلغ من ازدهارها الزراعي أن إقليمها اشتمل على ثلاثمئة قرية[٥]. وكان يقع إلى قريب من نابلس موقع يدعى عسكر الزيتون، اشتهر بكثرة زيتونه[٦]، وموقع آخر يدعى ياسوف وصف بكثرة رمَّانه[٧].

وازدهرت في أريحا زراعة النخيل والموز والريحان وقصب السكر[٨]، فضلاً عن النبات المسمى بالوسمة أو البلسم أو العيلج الذي يستخرج منه صبغ النيل الغامق[٩]. كما اشتهرت بيسان بكثرة بساتينها وبخاصة النخيل

(١) سفرنامة ص ٣٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩.
(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٠ - ٦١، الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٤) نخبة، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٥) الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ٤٦.
(٦) ياقوت: معجم ٣/ ٦٧٥.
(٧) المصدر السابق نفسه: ٤/ ١٠٠٢.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٤، القزويني: آثار ص ٩٥.
(٩) أبو الفدا: تقويم ص ٢٣٦، الإدريسي: نزهة ص ٢.

والرز[١]، وعرفت الرملة بكثرة فواكهها وخاصة التين والنخيل[٢]، واشتهر تينها بأنه لا يوجد له مثيل في أي مكان آخر، وكانت تصدر منه كميات كبيرة إلى مختلف البلاد[٣]. وتقع الخليل في وهدة بين جبلين وهي ملتئمة الأشجار كثيرة الثمار[٤]، وبخاصة الأعناب والتفاح والزيتون والتين والخرنوب، والتي اشتهرت بكثرتها وكانت تصدر منها كميات كبيرة إلى مصر[٥]، كما ازدهرت فيها زراعة الشعير[٦].

فإذا يمَّمنا وجوهنا قِبَل الساحل ما كان لنا أن نصل إلى عكا إلا بعد اجتياز بساتينها الملأى بأشجار الفواكه، وبخاصة الزيتون، وضياعها العديدة التي تكتنفها الجبال[٧]. وانتشرت في حيفا أشجار الفواكه وبخاصة النخيل[٨]، وعلى بعد سبعة فراسخ من عكا تقع قيسارية التي ازدهرت فيها زراعة الفواكه وبخاصة النخيل والحمضيات، وقد وصفها المقدسي بأنه ليس على بحر الروم (المتوسط) بلد أجمل ولا أكثر خيرات منها، وأنها تفور نعماً[٩]. ولا تقل خصباً عنها عسقلان «ذات البساتين والثمار»، والتي يكثر

(١) الإدريسي: نفس الصفحة، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٦، ١٨٠، أبو الفدا: تقويم ص ٢٣٤.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٦٤
(٣) ناصر خسرو: سفرنامة ص ٣٢.
(٤) ابن الوردي: خريدة ص ٢٤، الاصطخري: مسالك ص ٥٧ - ٥٨، ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٥٨ - ١٥٩.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٧، أبو الفدا: تقويم ص ٢٤١، ناصر خسرو: سفرنامة ص ٣٢.
(٦) ناصر خسرو: نفس الصفحة.
(٧) ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢، المقدسي: التقاسيم ص ١٦٢.
(٨) ناصر خسرو، سفرنامة ص ١٨.
(٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٤، ناصر خسرو، نفس الصفحة.

فيها الزيتون والكروم واللوز والرمَّان[١]، فضلاً عن النخيل[٢]، ووصفت غزة بأنها «مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود»، وقد ازدهرت فيها بشكل خاص زراعة الكروم[٣].

وكثرت في منطقة صفد ـ شمالاً ـ أشجار الكمثرى المسكي المعطر الرائحة، الطيب الطعم، والأترج الذي اشتهر بحجمه الكبير الذي يبلغ وزن الواحدة منه أحياناً نحو من ستة أرطال دمشقية، على عهدة الدمشقي[٤]. وهناك ـ أيضاً ـ الكروم والزيتون والبطم والخروب والسفرجل وأنواع كثيرة من الفواكه[٥]، وبلغ من اتساع نشاطها الزراعي أن إقليمها كان يضم ـ حسبما ذكر الظاهري ـ ألفاً ومئتي قرية[٦].

وعموماً، فإن سائر جبال فلسطين وسهولها ملأى ـ كما يقول الاصطخري ـ بالزيتون والتين والجميز والعنب وسائر الفواكه[٧]، فضلاً عن قصب السكر الذي ازدهرت زراعته في الغور[٨]، والقطن الذي كان يزرع في أطراف القدس ويصدر إلى عدد من البلاد[٩].

وفي تعليق طريف للمقدسي نعرف كم كان الإنتاج الزراعي في فلسطين مزدهراً ومتنوعاً؛ فهو يقول: «اعلم أنه قد اجتمع بكورة فلسطين أربعة

(١) ابن الوردي: خريدة ص ٢٣ - ٢٤.
(٢) إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.
(٣) الدمشقي: نخبة ص ٢١٣، الظاهري: زبدة ص ٤٢، أبو الفدا: تقويم ص ٢٣٩.
(٤) نخبة، ص ٢١١.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢١١.
(٦) زبدة: ص ٤٤.
(٧) مسالك، ص ٥٧ - ٥٨، ياقوت: معجم ٢/٦٥٧، العمري: مسالك ١/٣٣٧، وانظر: ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٨ - ١٥٩.
(٨) ياقوت: معجم ١/٢٠٠.
(٩) المقدسي: التقاسيم ص ١٨٠.

وثلاثون شيئاً، ولا يجتمع في غيرها. فالسبع الأولى لا تؤخذ إلَّا بها، والسبع الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع إلَّا بها، وقد يجتمع أكثرها في غيرها مثل... انجاص الكافوري وتين السباعي والدمشقي والجميز والخروب والعناب وقصب السكر والتفاح الشامي والرطب والزيتون والأترج والنيل والنارنج والنبق والجوز واللوز والموز والسماق والكرنب والكمأة وعنب العاصمي..إلخ»[١].

ومن هذا الإنتاج الزراعي الغزير نما وانتشر عدد من الصناعات المحلِّية، كان أبرزها ولا ريب زيت الزيتون الذي كان يصدر إلى الديار المصرية والشامية وإلى الحجاز، وكان يحمل منه إلى جامع بني أمية في كل سنة ألف قنطار دمشقي، ويقول ناصر خسرو الذي زار القدس عام ٤٣٨هـ: إن فيها من أرباب العائلات من يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنّ مِنْ زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى كافة أنحاء العالم، كما يصف ازدهار الحركة الصناعية في القدس، فيذكر أن فيها صناعاً كثيرون، وأن لكل جماعة منهم سوقاً خاصة[٢]. وبسبب كثرة الزيتون ازدهرت ـ كذلك ـ صناعة الصابون الراقي الذي كان يصدر منه ـ كذلك ـ كميات كبيرة إلى عدد من البلاد الإسلامية وجزر البحر المتوسط[٣].

كما انتشرت صناعة حلواء الخروب. ويصف ابن بطوطة طريقة صنعها: يطبخ الخروب ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء، وكانت كميات من ذلك تصدر إلى مصر والشام[٤]. ويشير ابن الوردي إلى ازدهار صناعة الحُصر البديعة في طبرية، ومنها حُصْران الصلاة

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٠.
(٢) سفرنامة، ص ١٩.
(٣) الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠ - ٢٠١، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٠ - ٦١
(٤) ابن بطوطة: نفس الصفحة.

التي كانت الواحدة منها تشترى بخمسة جنيهات مغربية[١]. وفي بيسان ينبت السامان الذي تصنع منه الحُصر السامانية، ولا يوجد نباته البتة إلا فيها كما يقول الإدريسي[٢].

وازدهرت في فلسطين صناعة السكر وبخاصة بعض مناطق الغور عند أريحا وغيرها، حيث تكثر زراعة قصب السكر[٣]، وكذلك في بعض الجهات الساحلية من مثل مدينة كابل التي كثرت فيها مزارع الأقصاب، والتي كان يطبخ فيها السكر الفائق[٤]. وفي أريحا كان يزرع نبات الوسما أو النيلج على نطاق واسع لغرض استخراج صبغ النيل ذي اللون الأزرق الغامق منه[٥].

وقد ازدهرت ـ أيضاً ـ صناعة السفن البحرية في المدن الفلسطينية المطلة على البحر المتوسط، وهنالك نوع من السفن يدعى الجودي برعت حيفا في صناعته[٦].

ومن خلال قائمة موسعة يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين نستطيع أن نضع أيدينا على عدد آخر من الصناعات الفلسطينية، ومن أبرزها فضلاً عن الصناعات الغذائية، الفوط والمرايا وقدور القناديل والإبر والخرز والزجاج والكاغد والبز والسبح والمآزر[٧].

وأفاد الفلسطينيون أيضاً من المعادن والمواد الخام المتوفرة في بلادهم، وقد سبق وأن أشرنا إلى الفوائد الجمة التي كانوا يحصلون عليها من المادة القيرية التي يرمي بها البحر الميت، أو تستخرج من سواحله، والمسماة

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٧.
(٢) نزهة، ص ٢.
(٣) ياقوت: معجم ١/ ٢٠٠، القزويني: آثار ص ٩٥.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٦٢.
(٥) أبو الفدا: تقويم ص ٢٣٦.
(٦) ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٨.
(٧) أحسن التقاسيم، ص ١٨٠.

بالحمر، ويمكن أن نضيف هنا الكبريت الذي كان يستخرج من مقالع أريحا[١]، والفضة التي كانت تصنع في القدس وتصدر إلى مختلف البلاد[٢]، والملح الذي يتجمع على سواحل البحر الميت، وهو أنواع شتى، إلّا أن أحسنها ولا ريب الملح «الأندراني» الذي يكثر بالقرب من أرض سدوم، وهو أصفاها وألطفها، وكيفما تكسَّرت حجارته ما تكسَّرت إلّا فصوصاً مربعات الزوايا[٣]. . والحجارة البيضاء التي كانت تستخرج من مقاطع خاصة[٤]، والرخام الكثير الذي كان يستخرج من أطراف الرملة، والذي كانت تزين به واجهات الكثير من القصور والبيوت بعد نقشه وتزيينه، ويحدثنا ناصر خسرو كيف أن هذا الرخام يقطع بمنشار لا أسنان له، وكيف أنهم كانوا يعملون المنشار على أعمدة من الرخام بالطول لا بالعرض، فيخرجون منه ألواحاً كألواح الخشب، وكيف أنه رأى هناك أنواعاً وألواناً من الرخام، من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض، من كل لون[٥].

ولا نكاد نجد، فيما عدا هذه الإشارات، ثمة شيء يذكر عن الصناعات الفلسطينية، رغم أنها كانت أكثر من هذا ولا ريب. . وسنعرف بعد قليل سبب هذه الشحة في الحديث عن الكثير من جوانب الحياة الفلسطينية في مصادرنا الجغرافية.

وما يقال عن الصناعة يمكن أن يقال عن التجارة. . فرغم أن فلسطين ـ كما رأينا ـ كثيرة الزروع والثمار، ورغم ازدهار العديد من الصناعات الغذائية فيها، ورغم موقعها التجاري الممتاز على خطوط المواصلات

(١) القزويني: آثار ص ٩٥، المقدسي: التقاسيم ص ١٨٤.
(٢) الظاهري: زبدة ص ٢٣.
(٣) الدمشقي: نخبة ص ٧٩.
(٤) المقدسي: التقاسيم ص ١٨٤.
(٥) سفرنامة، ص ١٩. المقدسي: نفس الصفحة.

المحلية والعالمية، براً وبحراً. . . فإننا لا نكاد نعثر سوى على إشارات مبعثرة عن النشاط التجاري الذي مارسته فلسطين: الحركة المزدحمة الدؤوبة في ميناء عكا، ثغر فلسطين الكبير[(١)]، والأسواق الكثيرة العامرة في عدد من المدن المطلة على الساحل أو المنتشرة في الداخل كغزة وعسقلان[(٢)] وعجلون[(٣)] والخليل[(٤)] ورفح[(٥)]، والرملة التي وصفت بأنها عامرة، وأن فيها أسواقاً وتجارات ودخلاً وخرجاً[(٦)]، أما القدس فقد اشتهرت بكثرة أسواقها[(٧)]، وجمال تنسيقها؛ حيث كان لكل جماعة من الصناع سوق خاص[(٨)]. ويصف الظاهري جانباً من هذه الأسواق امتدت على شكل ثلاث قصبات على صف واحد، ويقول بأنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها[(٩)]، وقد أنشئت فيها الخانات العديدة لتغطية حاجة التجار إلى الإقامة[(١٠)]. واشتهرت نابلس هي الأخرى بكثرة أسواقها وازدحامها، وكان أحد هذه الأسواق يمتد من طرف المدينة إلى طرفها الآخر، بينما امتد سوق ثانٍ إلى نصف البلد[(١١)].

وهناك أكثر من إشارة إلى ما كانت تصدره فلسطين إلى البلاد الأخرى من المواد الخام والمنتجات الزراعية والمصنوعات. . وكانت المنتوجات الزراعية أبرز هذه الصادرات ولا ريب. فإلى البلاد المجاورة كانت تصدر

(١) ابن جبير: رحلة ص ٢٥٨ - ٢٨٦، رحلة ص ٩٣.
(٢) ابن بطوطة: تحفة ص ٥٤، إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.
(٣) ابن بطوطة: تحفة ص ٦٠ - ٦١.
(٤) ياقوت: معجم ٢/٤٦٨.
(٥) المصدر السابق نفسه: ٢/٧٩٦، ابن عبد الحق: مراصد ١/٤٧٦.
(٦) الإدريسي: نزهة ص ٢، ابن بطوطة: تحفة ص ٦٠ - ٦١.
(٧) ياقوت: معجم ٤/٥٩٣، ابن عبد الحق: مراصد ٣/١٣١.
(٨) خسرو: سفرنامة ص ١٩.
(٩) زبدة، ص ٣٢.
(١٠) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢.
(١١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٤.

أنواع مختلفة من الكروم والتفاح[١]، ونجد في القائمة التي يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين الكثير من المواد الزراعية التي كانت تصدر إلى الخارج؛ وأبرزها: الزيت والخروب والجبن والقطن وأنواع الزبيب والتفاح والتمور والنيل والحبوب والعسل والرز. ومن أبرز ما يصدر من المصنوعات: الصابون والمناشف والفوط، والمرايا وقدور المناديل والإبر والمآزر والبز والسبح والكاغد[٢]. كما يقدم قائمة أخرى بالمكاييل المعمول بها في فلسطين، من مثل: القفيز والويبة والمكوك والكيلجة. فالكيلجة تبلغ نحو صاع ونصف، والمكوك ثلاثة كيالج، والويبة مكوكان، والقفيز أربع ويبات، وينفرد أهل القدس بالمدى وهو ثلثا القفيز، وبالقب وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك إلا في كيل السلطان. وهنالك أيضاً الرطل الذي يبلغ اثني عشر أوقية، وتتراوح الأوقية بين الخمسين درهم إلى بضع وأربعين، ويبلغ الدرهم ستون حبة والحبة شعيرة واحدة، والدانق عشر حبات، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط ثلاث شعيرات ونصف[٣].

ويصف ابن جبير عكا بأنها محط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، ومرفأ كل سفينة[٤]، ويشبهها في عظمها بالقسطنطينية، ولا ريب أنه يبالغ في ذلك كثيراً رغم أن عكا يومها (٥٨٠هـ) كانت قاعدة مدن الفرنج بالشام.. وهي مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، وسككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطئ الأقدام[٥]. وهو يتحدث عن أيام مغادرته إياها، فيمنحنا معلومات أكثر عن حركة التجارة منها وإليها..

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٠.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.
(٤) رحلة ص ٢٨٥.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

يقول: في التاسع من شهر أكتوبر كنا لا نزال على ظهر المركب بمرسى عكا منتظرين الإقلاع، وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوماً لعدم استقامة الريح. وفي مهبِّ الريح بهذه الجهات سر عجيب، وذلك لأن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكا بالبضائع إلا في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل، فيها تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايو، وأكثر وأقل بحسب ما يقضي به الله تعالى. والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر، وفيه تتحرك الريح الشرقية أقصر من المدة الربيعية، وإنما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربية أكثرها دواماً، فالمسافرون إلى الغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق[(١)].

ويتحدث ناصر خسرو عن ميناء عكا فيقول بأنه يقع على الطرف الجنوبي للمدينة، وأن معظم مدن الساحل كذلك. وهو يعرف الميناء بأنه اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن، وهي تشبه الإسطبل، وظهرها ناحية المدينة، وحائطاها داخلان في البحر، وعلى امتدادها مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، وقد شدت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشدُّ حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء[(٢)]. ويقول الإدريسي بأن مرساها مأمون وأن ناسها أخلاط[(٣)]، كما هو معروف بالنسبة لسائر الموانئ في العالم.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
(٢) سفرنامة، ص ١٥.
(٣) نزهة المشتاق، ص ٦.

وفي حيفا، حيث تنشط صناعة نوع من السفن البحرية المسماة بالجودي، يمتد لسان واسع في البحر أقيم عليه مرسى جيد لإرساء الأساطيل، وهي بمثابة فرضة (ميناء) لطبرية قاعدة الأردن(١). وتعتبر يافا ميناء الرملة على البحر المتوسط، وتبعد عن الرملة ستة أميال، ويقول المقدسي بأن هذا الميناء كان يتميز بالجدة(٢)، ولكنه كان يعد من الموانئ الكبيرة ذات الشهرة الواسعة والرخاء العميم والأسواق المزدحمة، حيث يتواجد عدد كبير من وكلاء التجار لتسيير المعاملات التجارية المتجددة(٣). وكان يقوم في غزة مرسى للسفن التجارية ساعد ولا ريب في ازدهار الحركة التجارية فيها(٤).

وقد أفاد الفلسطينيون ـ كذلك ـ من البحر الميت لأعمالهم التجارية، فكانت تجتازه السفن الصغار التي تحمل صنوف الغلال والفواكه إلى أريحا وسائر أعمال الغور(٥).

٤

وبنظرة سريعة على حشود النصوص الملأى بالتفاصيل عن المواقع والآثار الدينية في فلسطين، والتي لا يكاد مصدر جغرافي يخلو من الحديث عنها وتركيز اهتمامه عليها.. بنظرة سريعة يمكن أن يتبين السبب الرئيسي في شحة الحديث عن العديد من الجوانب المهمة في الحياة الفلسطينية، وفي انعدامه تماماً عن جوانب أخرى لا تقل عنها أهمية، وربما يكون لجغرافيينا

(١) خسرو: سفرنامة ص ١٨، الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦.
(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.
(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ص ٢٣٩.
(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٢.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١.

الكثير من الحق في موقفهم هذا، ذلك أن عنصر الجذب في الجغرافيا الفلسطينية كان، ولا يزال، وسيظل مركزها الديني العريق، ومعطياتها العمرانية، والآثارية ذات الجذور التاريخية المتوغلة في عمر الزمن.. والجغرافي المسلم على وجه الخصوص يجد في انفتاح دينه على سائر الأديان السماوية السابقة ومعطياتها، كما يجد في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام من التقدير والتكريم لهذه البقعة المباركة مايدفعه دفعاً إلى وصف كل ما تقع عليه عينه من تراث فلسطين الديني، وإلى الحديث بتلهف وعشق عن كل ما تلمسه يداه أو تطأه قدماه.. إنه يدخل محراباً دينياً كبيراً توالت على أرضيته نبوات السماء الكبرى، ووقف في ساحته أنبياء الله جميعاً عليهم السلام يصلون يوم الإسراء، وراء خاتمهم محمد ﷺ.

إن الجغرافي أو الرحالة المسلم وهو يشد الرحال إلى فلسطين لا يكاد يرى فيها إلا ما قد جاء لكي يراه فعلاً: المواقع والرؤى والمشاهد.. والذكريات العزيزة التي طال شوقه إليها.. وها هو الآن في قلب التجربة.. فلا نتوقع منه أن يشيح بصره عن مراكز الشد الروحي، فإذا ما أشاح قليلاً ها هنا أو هناك فلا نفترض فيه طول المكوث، لكي يحكي لنا عن أشجار تزرع أو حبوب تحصد أو مركب يذهب وآخر يجيء، ولا نتوقعن فيه أن يحدثنا كيف يعيش الناس في فلسطين وماذا يفعلون.. ففي الأماكن الأخرى من العالم الذي أتيح له أن يمر بها منحنا الكثير عن هذه الجوانب.. ولكنه هنا في فلسطين.. فإن جُلَّ اهتمامه سينصب على بؤرة واحدة: تراث الأديان العريق، ومن ثم فإنه مستعد أن يمنحنا ليس فقط الملامح الكلية والقسمات العامة لمعطيات هذا التراث، بل أن يتجاوزها صوب الدقائق والتفاصيل؛ فسيحدثنا حتى عن انحناءات الأحرف، وتناظر الزوايا، وألوان الصخور.

قد يتأذى الباحث الذي يريد أن يأخذ من الجغرافي القديم كل شيء عن فلسطين من أجل أن يحظى بصورة أكثر وضوحاً.. ولكن الجغرافي ـ نفسه ـ

سيكون أكثر أذى لو أنه جمد لحظة الشوق، وطامن من عنفوانه التجربة، وهو في المكان المبارك الذي قد لا تتاح له رؤيته مرة أخرى.. فلنعطهم الحق هذه المرة.. ولنر ـ معاً ـ من خلال أعينهم.. هذه المرة كذلك..

ولكي لا يطول بنا السرى ونضيع في الدقائق والتفاصيل، مما لا يسمح به مجال كهذا، فسنكتفي بعرض لمسات مما قيل في هذا الميدان الرحب، وهو كثير كثيف يمكن لغرض الاستقصاء إحالة القراء والباحثين عليه كما سيجدون في الصفحات التالية.

القدس هي الهدف الأول!! إنها في القلب من فلسطين تتربع على مكان عال، فكأنها ـ بذلك ـ تنادي الرحالة والزائرين، وتفتح لهم صدرها.. «مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين»[١]... وإليكم شهادة واحد من الرحالة المشاهير.. ابن بطوطة..: «وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله ﷺ ومعرجه إلى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت»[٢]. وقد كان للمدينة على عهد المقدسي ثمانية أبواب[٣]..

وما يلبث ابن بطوطة أن ييمِّم وجهه قبل المسجد الأقصى، فإذا كانت القدس هي قلب فلسطين؛ فإن المسجد الأقصى هو السويداء «وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن. يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمئة واثنان وخمسون ذراعاً. وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلَّا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الإمام، والمسجد كله فضاء وغير

(١) الاصطخري: مسالك ص ٥٦.
(٢) تحفة النظَّار، ص ٥٧.
(٣) أحسن التقاسيم، ص ١٦٥.

مسقف، في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموَّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع، سواه، مسقفة»(١).

ويجري ابن الوردي مقارنة بينه وبين جامع قرطبة الشهير.. فيصف أولهما بأنه المسجد المعظم المسمى بالأقصى، ثم يقول: «وليس في الدنيا كلها مسجد على قدره إلا جامع قرطبة من بلاد الأندلس. وطول المسجد الأقصى مئتا باع في عرض مئة وثمانين. وفي وسطه قبة عظيمة تسمى قبة الصخرة، ويقال: إن سقف جامع قرطبة أكبر من سقف جامع الأقصى، وصحن الأقصى أكبر من صحن جامع قرطبة»(٢).

وثمة شقيقة المسجد: قبة الصخرة.. «وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توفر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام، أيضاً، محكم الصنعة وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة (الزينة) ورائق الصنعة ما يعجب الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأمِّلها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي عليه الصلاة والسلام عرج منها إلى السماء وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل إليها

---

(١) تحفة النظَّار ص ٥٨، وعن المعطيات الغزيرة للجغرافيين العرب الخاصة بالمسجد الأقصى انظر بالتفصيل الصفحات ٢٤٢ - ٣٠١ من كتاب: الأب ا. س. مرمرجي الدومنكي: بلدانية فلسطين العربية (بيروت - ١٩٤٨م)؛ وهو المرجع الذي اعتمدناه في هذا البحث بالنسبة لعدد من المصادر غير المتوفرة، وهي: رحلة ناصر خسرو، ومعجم البلدان لياقوت، ونزهة المشتاق للإدريسي، وأحسن التقاسيم للمقدسي، وآثار البلاد للقزويني، ومخطوطتا الإشارات للهروي والرحلة القدسية للنابلسي.

(٢) خريدة، ص ٢٣ - ٢٤.

على درج، وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما الغلق يغلقان عليها، أحدهما: وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنعة، والثاني: من خشب، وفي القبة ورقة كبيرة من حديد معلقة هناك، والناس يزعمون أنها ورقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه»[١]. وحَسَناً فعل ابن بطوطة بقوله: يزعمون، رغم أنه في أماكن أخرى من العالم الواسع الذي تجول فيه، عرض لظواهر وأشياء مما لا يصدقه العقل ولا يقبل التأويل. دون أن يدرأ عن نفسه الشبهة ـ أحياناً ـ بقوله: (يزعمون)..

وغير المسجد الأقصى وقبة الصخرة، مواقع ومشاهد وذكريات: هنالك بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم، شرقي البلد، على تل مرتفع، بنية؛ يقال: إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء، وقبر رابعة العدوية، وهي غير العدوية الشهيرة، وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها، وأخرى معظمة يحج إليها النصارى، ويزعمون أن فيها قبر المسيح عليه السلام[٢].. وهناك محراب داود عليه السلام، وهي بنية مرتفعة، يشبه أن يكون ارتفاعها خمسين ذراعاً من حجارة، وعرضها نحو ثلاثين ذراعاً على الحزر والتخمين، وأعلاه بناء مثل الحجرة وهو المحراب، وإذا ما وصلت إليها من الرملة فهو أول ما يتلقَّاك من بناء بيت المقدس[٣].

هنالك أيضاً الكنيسة العظمى المسماة بكنيسة القيامة، والتي تحج لها الروم من سائر الأقطار، يقول عنها ياقوت بأنها أعظم كنيسة للنصارى بالقدس، وأن وصفها لا ينضبط حسناً وكثرَة مالٍ وتنميقَ عمارة، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظَّار ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٥٩.

(٣) الاصطخري: مسالك ص ٥٦ - ٥٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٨.

أن المسيح عليه الصلاة والسلام قامت قيامته فيها، وبروح نقدية يكشف ياقوت عن إحدى مزاعمهم ـ يومها ـ حول قنديل كانوا يزعمون أن النور ينزل من السماء في يوم معلوم، فيشعله، ويتبين في نهاية الرواية أن أحد القسس كان مكلفاً بتقريب شمعة منه، فتعلق به بغتة، والناس لا يرون ولا يشعرون به، فيشتعل على حين غفلة «فيعظم عندهم ويطيعونه»(١). وهذا يذكرنا بما فعله ناصر خسرو مع رواية الناس حول وادي جهنم الذي يقع قريباً من القدس، من أن الذي يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم، فإن الصدى يرتفع هناك!! يقول الرجل: «وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً».

ويقابل القيامة من المشرق كنيسة الحبس الذي حبس فيه المسيح (عليه السلام) وبها مقابر الفرنج، وعلى الميامن من جبل الزيتون تقع القرية التي جلب منها حمار المسيح عليه السلام، وإلى الجنوب من بيت المقدس تقوم كنيسة صهيون التي يقال: إن المسيح (عليه السلام) أكل فيها مع حوارييه من المائدة التي أنزلت عليه من السماء، وهي كنيسة حصينة، وهنالك على طرف الخندق تقع كنيسة بطروس، وفي هذا الخندق تتفجر عين سلوان التي أبرأ فيها المسيح عليه السلام الرجل الأعمى، وحيث تنتشر بيوت كثيرة منقورة في الصخر؛ فإن هناك رجال مقيمون قد حبسوا أنفسهم لله تعالى. وفضلاً عن هذا كله فإن القدس تضم جناحيها على قبور عدد كبير من الأنبياء عليهم السلام وآثارهم.

وفي بيت لحم تقوم كنيسة حسنة البناء متقنة الصنع، في الموضع الذي ولد فيه المسيح عليه السلام، والذي يبعد عن القدس ستة أميال، وفي وسط الطريق إليه يقبع قبر راحيل أم يوسف عليه السلام، وقد زار ابن بطوطة بيت لحم وقال: إن فيه أثر جذع النخلة التي أسقطت على مريم عليها السلام رطباً جنياً، وأن عليه عمارة كثيرة، وأن النصارى يعظمونه أشدَّ التعظيم ويضيفون من نزل به.

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ١٧٣.

كما أنه زار الخليل (التي كانت تسمى حبرون)، ووصفها بأنها مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار، حسنة المنظر عجيبة المخبر، في بطن واد، وأن مسجدها أنيق الصنعة محكم العمل، بديع الحسن سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت، ورأى صخرة يبلغ أحد أقطارها سبعة وثلاثين شبراً، وفي داخل المسجد الغار المقدس حيث تقع قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام)، تقابلها قبور أزواجهم الثلاث، وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيّقٍ يفضي بها إلى ساحة مفروشة بالرخام، فيها صور القبور الثلاثة ويقال: إنها محاذية لها، وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك، وهو الآن مسدود، وقد نزلت بهذا الموضع مرات. ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك، ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه (المسفر للقلوب عن صحة قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، وجل أهل العلم يؤكدون ذلك ولا يطعن فيه إلّا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف لا يشكّ فيه.

ويواصل ابن بطوطة وصفه لمسجد الخليل فيقول: إنه به أيضاً قبر يوسف عليه السلام، وبشرقي الحرم تربة لوط عليه السلام، وهي على تل مرتفع، وعلى قبره أبنية حسنة، وهو في بيت منها حسن البناء، مبيَّض، ولا ستور عليه، وعلى مقربة من المكان يقع مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع، له نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيّمه. وفي المسجد قريباً من بابه، موضع منخفض في حجر صلد قد هُيِّئ فيه صورة محراب لا يسع إلا مصلياً واحداً.. وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي (رضي الله عنهم)، وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام[١]. ويصف الدمشقي مقام الخليل عليه السلام بأن

(١) تحفة النظّار، ص٥٥ - ٥٦، وانظر: ابن الوردي: خريدة ص ٢٤.

طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه خمسون، وفي الطول منه عشرون حجراً مدماكاً واحداً[١].

وفي نابلس حيث يقيم عدد من اليهود السامريين[٢]، يحجون إلى جبلي طور زيتا المجاورين، ويحرقون عليهما قرابينهم من الخرفان[٣]، تقع البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام حيث جلس يطلب من المرأة ماءً للشرب، والى جواره تقع كنيسة معهودة[٤] . . . وتقع بالقرب من نابلس مدينة سبسطية التي تضم قبر زكريا وابنه يحيى، فضلاً عن قبور جماعة من الأنبياء والصديقين عليهم السلام[٥]، كما تقع بليدة، تدعى عورتا، يقال: إنَّ فيها قبور سبعين نبياً[٦]. وعلى الطريق إلى بيسان قرية تدعى قرية لاوى نسبة إلى لاوى بن يعقوب[٧].

إنه ما من مدينة أو قرية في فلسطين إلا وفيها (الشاهد) على الدور المكثف المترع بالعطاء، والذي لعبته فلسطين في حركة الأديان السماوية المتتابعة . .

---

(١) نخبة الدهر ص ٣٩. ولمزيد عن التفاصيل انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٢، ياقوت: معجم ٢/ ١٩٤، ٤٦٨، أبو الفدا: تقويم ص ٢٤١، الإدريسي: نزهة ص ٦، الهروي، الإشارات ص ٤٢، الظاهري: زبدة ص ٤٢.

(٢) انظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٧ - ٥٨، وابن حوقل: صورة الأرض: ص ١٥٨ - ١٥٩ والدمشقي: نخبة ص ٢٠٠ - ٢٠١، وابن الوردي، خريدة ص ٢٤.

(٣) الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠ - ٢٠١، وانظر: ياقوت: معجم ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨، وابن الفقيه: البلدان ص ١٠١، وابن عبد الحق: مراصد ٢/ ١٠، العمري: مسالك ص ٢٢٠.

(٤) ابن الوردي: خريدة ص ٢٤.

(٥) ياقوت: معجم ٣/ ٣٣، ابن عبد الحق: مراصد ٢/ ١٠، العمري: مسالك ص ٢٢٠.

(٦) ياقوت: معجم ٣/ ٧٤٥، ابن عبد الحق: مراصد ٢/ ٢٨١.

(٧) ياقوت: معجم ٤/ ٣٤٤، ابن عبد الحق: مراصد ٣/ ٣، ولمزيد من التفاصيل عن مكانة نابلس الدينية انظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٨، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٦٤، الهروي: الإشارات ص ٣٤، الإدريسي: نزهة ص ٢، القزويني: آثار ١٨٤.

في الرملة يقوم الجامع الأبيض الذي يذهب ابن بطوطة مع إحدى مبالغاته إلى القول بأن في قبلته ثلاثمئة من الأنبياء مدفونين[١]. ويقول عنه المقدسي بأنه أبهى وأرشق من جامع دمشق، وأنه ليس في الإسلام أكبر من محرابه، ولا يعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره، وأن ليس له منارة بهية[٢]. . ويروي الظاهري أن بمغارة الجامع أربعين قبراً من قبور الصحابة، وقبرين لاثنين من إخوة يوسف، وقبري أبي هريرة وسلمان الفارسي رضي الله عنهما[٣].

وفي الناصرة من أعمال صفد، حيث ظهر المسيح عليه السلام، الموضع الذي تلقت أمه البشارة به، وهو معروف يزوره النصارى وغيرهم[٤]، وقد سمي النصارى باسمهم هذا نسبة إليها، وإلى قريب منها يقع جبل ساعير، ويرى أهل القدس أن المسيح عليه السلام إنما ولد في بيت لحم، وأن آثار ذلك عندهم ظاهرة، وإنما انتقلت به أمه إلى هذه القرية[٥].

وفي منحدر جبل الكرم المطلّ على حيفا، يقع الكهف الذي أوى إليه إلياس عليه السلام، وبظاهر المدينة دير للنصارى يدعى دير القديس إلياس، وعلى قمة الجبل تقع أطلال المذبح الذي عمره هذا النبي في القرن العاشر قبل الميلاد، وهو بناء مستدير يبلغ محيط قاعدته أربعة أذرع[٦].

وقريباً من الكرمل، على شاطئ بحر الجليل، تقع قرية معون التي كانت مقام المسيح عليه السلام بعد مفارقته الناصرة[٧]، وفي عكا القريبة يقع قبر

(١) تحفة النظّار، ص ٦٠.
(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٦٤.
(٣) زبدة، ص ٤٢.
(٤) الدمشقي: نخبة ص ٢١٢.
(٥) ياقوت: معجم ٧٢٩/٤، القزويني: آثار ص ١٨٤، الهروي: الإشارات ص ٣٠.
(٦) التطيلي: رحلة ص ٩٣ - ٩٤.
(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٩٤، وانظر: الهامش رقم (٣) من الصفحة نفسها.

صالح عليه السلام[١]، وإلى قريب من طبرية يقع الجب الذي أسقط فيه يوسف عليه السلام فالتقطه بعض السيارة، وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية، والجب عميق كبير ينبع منه الماء[٢]. كما يقوم إلى جوارها مسجد يعرف بمسجد الأنبياء يضم قبور شعيب وبنته وسليمان ويهوذا عليهم السلام وغيرهم[٣]، وإلى قريب من طبرية ـ كذلك ـ تقع قرية تدعى كرسي يقال: إن المسيح عليه السلام جمع الحواريين بها، وأنفذهم منها إلى النواحي، وفيها موضع كرسي زعموا أنه جلس عليه[٤].

وفي الغور يمر ابن بطوطة لدى مغادرته فلسطين بقبر أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فيزوره ويجد عليه زاوية يقدم فيها الطعام لأبناء السبيل، ويبيت هناك، وأصحابه ليلة، ثم يغادرون المكان إلى القصير حيث قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهنالك قريباً من أريحا، أسفل الغور، يقع قبر موسى عليه السلام في مكان يدعى شيحان[٥].

فإذا يممنا وجوهنا قِبَل الساحل فإننا سنلتقي بما سمي جبل مشاهد الأنبياء الذي يقع على طريق الذاهبين إلى عكا، ويحدثنا ناصر خسرو كيف أنه عزم على زيارة هذه المشاهد، وكيف أنه تعرف على رجل من العجم قدم من أذربيجان للتبرك بهذه المشاهد للمرة الثانية فرافقه إلى عدد منها، قبور ذي الكفل وهود والعزير وأربعة من أبناء يعقوب إخوة يوسف والغار الذي يقع عليه قبر أم موسى[٦].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة ص ٦١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢، إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.
(٣) ابن بطوطة ص٦٢، ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢، الاصطخري: مسالك ص ٥٨ - ٥٩، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٠.
(٤) ياقوت: معجم ٤/ ٢٦٠، ابن عبد الحق: مراصد ٢/ ٤٨٩.
(٥) العمري: مسالك ص ١٧٦.
(٦) سفرنامة، ص ١٦.

وفي شرقي عكا تتفجر العين المعروفة بعين البقر، وقد بني عليها مسجد ويزورها المسلمون وأهل الكتاب[١]... وقريباً من عكا ـ على الطريق إلى طبرية ـ تقع قرية تدعى كفر مندة تحتوي على قبر زوجة موسى المسماة صفوراء، وبها ـ كذلك ـ الجب الذي سقى منه موسى عليه السلام للفتاتين، ويقول ياقوت: إن الصخرة التي كانت تغطي الجب باقية إلى الآن[٢].

وفي عسقلان وغزة وعلى الساحل الجنوبي لفلسطين نلتقي بمواقع أخرى، في الأولى، حيث كان إبراهيم الخليل عليه السلام قد مر يوماً، يقع مشهد شهير لرأس الحسين رضي الله عنه قبل نقله إلى القاهرة، على ما يروي ابن بطوطة، وهو مسجد عظيم كثير الارتفاع، وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر (رضي الله عنه) لم يبق منه إلا حيطانه، وفيه أساطين رخام لا مثيل لها في الحسن، وهي ما بين قائم وحصيد.. وبظاهر عسقلان يقع وادي النمل، الذي يقال: إنه المذكور في الكتاب العزيز. وبمقبرة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصى لكثرته[٣].

أما في غزة، أحد المواقع الأخيرة على الطريق إلى مصر، فإننا نلتقي بعدد من المساجد؛ أبرزها ـ ولا ريب ـ المسجد الجامع الذي تقام به الجمعة وهو أنيق البناء، محكم الصنعة، وقد بني منبره من الرخام الأبيض[٤].

وباختصار، فإن في فلسطين على صغر رقعتها، ما يقرب من عشرين مسجداً جامعاً، كما يقول الاصطخري[٥]، ولهذا دلالته ولا ريب.

---

(١) القزويني: آثار ص ١٤٩، ياقوت: معجم ٣/ ٧٥٨، ابن عبد الحق: مراصد ٢/ ٢٩٤.
(٢) معجم: ٤/ ٢٩١، ابن عبد الحق: مراصد ٢/ ٥٠٤، الهروي: الإشارات ص ٢٩، القزويني: آثار ص ١٦٥.
(٣) ابن بطوطة: تحفة ص ٥٩ - ٦٠، إسحاق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.
(٤) ابن بطوطة: ص ٥٤.
(٥) مسالك، ص ٥٨.

٥

على المستوى البلداني، فإنه ما من مدينة مهمة في فلسطين إلَّا وقدمها لنا الرحالة والجغرافيون.. أحياناً عبر ملامحها الشاملة وقسمات شخصيتها المتميزة.. وأحياناً أخرى عبر واجهتها البارزة: دينية أو معمارية أو طبيعية أو اقتصادية أو اجتماعية.. وفي أحيان كثيرة قدموا لنا عنها لقطات متفرقة من هنا وهناك، وكانت أقلامهم وهي ترسم الصور أشبه بالكاميرا سريعة التحول في تنفيذ اللقطات والتي ازداد اعتمادها ـ فنياً ـ في العقد الأخير..

وبالإحالة إلى التقسيم الإداري لفلسطين الحديثة والذي سبق عرضه، يتبين لنا كيف حقق أدبنا الجغرافي العربي قدراً طيِّباً من التغطية، رغم أنه ترك فجوات وفجوات، فحدثنا عن القدس والرملة واللد وبيت لحم والخليل وحطين وأريحا ونابلس وعجلون وبيسان وصفد والناصرة وطبرية وعكا وحيفا ويافا وقيسارية وأرسوف وأيلة وعسقلان وغزة ورفح.. وغيرها.. كما أنه قدَّم كشوفاً زمانية ومكانية للمسافات بين المدن، منها ـ على سبيل المثال ـ ما ذكره الاصطخري من أن المسافة بين دمشق وطبرية، في الشمال الشرقي لفلسطين، أربعة أيام، ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة أيام، ومن الرملة إلى رفح في أقصى الجنوب الغربي يومان.

أما عرض فلسطين فيبدأ من البحر عند يافا، ويمر بالرملة والقدس فأريحا فساحل البحر الميت، ويستغرق يومين[١]، وإذا واصلنا المسير في الطريق الأخير وانحرفنا بموازاة جبال الشراة باتجاه معان فإن الطريق سيبلغ ست مراحل[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٥ - ٦٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) الاصطخري: مسالك ص ٦٥ - ٦٧، وانظر عن المسافات كذلك: ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢، قدامة بن جعفر: الخراج ص ٢١٩، الدمشقي: نخبة ص ٢٠١.

ويستعرض قدامة بن جعفر في كتابه عن (الخراج) «السكك التي رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسماً للبريد: من طبرية قصبة الأردن إلى اللجون من عمل الأردن أربع سكك، ومن اللجون إلى الرملة قصبة فلسطين تسع سكك، ومن الرملة إلى آخر عمل فلسطين وهي سكة (المعينة) تسع سكك»[١].

وقد صنف الجغرافيون فلسطين ضمن الإقليم الثالث من بين سبعة أقاليم في العالم[٢]، وهي تقع في إطار قسم جغرافي واحد معروف يدعى الشام، كان الروم قد قسموه إلى أربعة أقسام: قسم قصبته دمشق، وآخر هو الأردن قصبته طبرية، وثالث قصبته حمص، أما القسم الرابع وهو فلسطين فكانت قصبته إيليا أو بيت المقدس، وبعد الفتح الإسلامي سميت هذه الأقسام أجناداً[٣]؛ حيث قسم الشام إلى خمسة أجناد وفق الضرورات العسكرية، وذلك بإضافة جند قنسرين، وكان كل جند منها يضم عدداً من الكور[٤]، وقد قسمت فلسطين إلى مناطق إدارية سميت أعمالاً وهي: عمل القدس وعمل الخليل وعمل نابلس وعمل الرملة وعمل غزة[٥]، وكانت فلسطين تضم في عهد ابن خرداذبة (منتصف القرن العشرين الهجري) الكور التالية: الرملة، بيت المقدس، عمواس، اللد، يافا، قيسارية، نابلس، سبسطية، عسقلان، غزة، بيت جبريل[٦]، واستمر هذا التقسيم إلى عهد الإدريسي (منتصف القرن السادس الهجري)[٧].

(١) الخراج، ص ٢٢٨.
(٢) الدمشقي: نخبة ص ٢٠.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٢، وانظر: ابن الوردي: خريدة ص ٢٣.
(٤) ياقوت: معجم ١/١٣٦، ابن عبد الحق: مراصد ١/٢٧، الظاهري: زبدة ٤٢، الإدريسي: نزهة ص ١٢.
(٥) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص ٤٣٠.
(٦) المسالك، ص ٧٨.
(٧) نزهة، ص ١٢.

ولم تكن القدس قاعدة لفلسطين باستمرار، ولا أكبر مدينة فيها، فقد نافستها لقرون عديدة، مدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك، والتي اتخذت قاعدة لفلسطين وأخذت تنمو باستمرار حتى فاقت في اتساعها، بمرور الوقت، شقيقتها القدس[١]. ولكن توالي الزلازل عليها اضطر العديد من أهلها لمغادرتها إلى القدس[٢]، وكانت صفد وغزة في القرن السادس الهجري أكبر مدينتين في فلسطين[٣].

وليس بعد الحديث عن جغرافية فلسطين الطبيعية، واقتصادها، وآثارها الدينية، من مادة ذات شأن لتكوين صورة واضحة عن الجوانب الأخرى وبخاصة الحياة الاجتماعية والنشاط الثقافي والنظم الإدارية، وقد نجد الشيء الكثير عن هذه الجوانب جميعاً في مصادر عربية أخرى غير المؤلفات الجغرافية، تلك هي كتب (الخطط) أو ما نسميه في العصر الحاضر بالنظم، والتي تقدّم تفاصيل غزيرة عن الجوانب آنفة الذكر وبخاصة الإدارة والمجتمع، وهناك أيضاً مصادر التاريخ المحلي والتاريخ العام وإن كانت الأخيرة تصب اهتمامها الرئيسي على مجريات الأحداث السياسية والعسكرية لكنها لا تخلو أحياناً من إشارة لهذا الجانب الحضاري أو ذاك. ولا ننسى ـ كذلك ـ ما يمكن أن تقدمه المدونات الأدبية على اختلاف أنماطها من مادة قيّمة عن هذه الجوانب. وإذا كان هذا البحث ينصب على معطيات الأدب الجغرافي العربي عن فلسطين و ليس عن التاريخ الحضاري لفلسطين، فإنه ليس من ضرورة منهجية تدفع للرجوع إلى هذه الأنماط من المصادر.

ثمة إشارات متفرقة إلى بعض جوانب الحياة الاجتماعية، منها تلك التي تتحدث عن بعض تقاليد (الأوقاف)، وإسهامها في تقديم نوع من (الضمان

(١) انظر: قدامة بن جعفر: الخراج ص ٢٤٧.
(٢) الدمشقي: نخبة ص ٢٠١.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٤.

الاجتماعي) لبعض الفئات من الفقراء أو الغرباء أو الزائرين، في المأوى والمطعم والعلاج، وهي تقاليد كانت سائدة في معظم أنحاء العالم الإسلامي لمدى قرون طويلة، وقد بلغت في المرحلة الممتدة بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين حداً كبيراً من الاتساع والنضج.. ومن خلال تتبع هذه التقاليد، أو الخدمات، يمكن أن نعثر على بعض نماذج الحياة الاجتماعية يومذاك.

في الخليل زار ناصر خسرو مشهداً لعدد من الأنبياء، أقيمت فوقه مقصورة ضمت عدداً من الحجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات القدس وهم يقدمون للضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون.. وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق. وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم.

ويزن رغيفهم منّاً واحداً، ويعطى من يصل هناك رغيفاً مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كل يوم. وفي بعض الأحيان كان يبلغ عدد المسافرين خمسمئة، فتهيأ الضيافة لهم جميعاً[١].

ويتحدث العمري عن زيارته للحرم الإبراهيمي في الخليل عام ٧٤٥هـ، وكيف أخبره بعض المباشرين أنهم في بعض ليالي العشر الأواخر من رمضان تلك السنة فرقوا ما يزيد على الثلاثة عشر ألف رغيف، وأنهم في غالب أيام العام يفرقون ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف، ويقدمون مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيب والسماق. وفي بكرة النهار يطبخ أيضاً مع قدر من الدشيش ويفرق على الواردين. وفي بعض أيام الأسبوع يطبخ ما هو أفخر من ذلك، وللحرم خدام يقومون بغربلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه، لا يتوقفون ليلاً ولا نهاراً. وقد رتبت أهراء القمح والطاحون

(١) سفرنامة، ص ٣٢.

والفرن بحيث ينفذ بعضها إلى بعض.. يفرغ القمح في الأهراء فيخرج خبزاً مخبوزاً!! ولا يزال على ذلك مدى الشهور والأعوام، لا ينقطع له مدد ولا يحصر بضبط ولا عدد[١].

ويشير ناصر خسرو إلى المستشفى الكبير في القدس والى الأوقاف الطائلة التي وقفت عليه، وكيف يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وكان يعمل في المستشفى عدد من الأطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف، ويقع هذا المستشفى على حافة وادي جهنم[٢].

ويمنحنا المقدسي تفاصيل أخرى عن الحياة الفلسطينية وتقاليدها، توقد قناديل المساجد على الدوام، وتعلق بالسلاسل أسوة بما كان سائداً في مكة.. وفي كل جامع يعلق صندوق على أحد الأعمدة لجمع الأموال، ولأصحاب بني حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرؤون خلال دفاتر في أيديهم.. وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشاءين، وللقراء مجالس في الجوامع.. ومن أراد أن يختم القرآن أو يحيي ليلة النصف من شعبان فعليه بالمسجد الأقصى من بين سائر مساجد العالم الإسلامي.

والفلسطينيون يتجمَّلون في ملابسهم، يلبسون الأردية الكثيرة، علماء وجهالاً، ولا يتخفّفون في الصيف، إنما هي نعال الطاق، ولا يقورون الطيالسة... ولا يتدرع إلَّا أهل القرى والكتبة، وبعضهم، في قرى القدس ونابلس، يلبسون كساءً واحداً بلا سراويل.. وقد اعتاد أغنياء الرملة ركوب الحمر المصرية بسروج، أما الخيول فلا يركبها إلَّا أمير أو رئيس.

وتكثر الأفران في مدن فلسطين، أما في القرى فثمة ما يسمونه الطوابين،

---

(١) مسالك: ١/ ١٦٨.

(٢) سفرنامة، ص ٢١.

تنور في الأرض صغير يفرش بالحصى ويوقد الزبل فوقه وحوله، فإذا احمرَّ طرحت الأرغفة على الحصى. وهم يكثرون طبخ العدس، ويقْلون الفول بالزيت أو يسلقونه ويباع مع الزيتون، ويملحون الترمس ويكثرون من أكله، ويصنعون مع الخروب ناطفاً يسمى القبيط، ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفاً، وفي الشتاء يكثرون من صناعة الزلابية غير المشبكة من العجين.

وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين على عهد المقدسي (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) من اليهود، وأكثر الأطباء والكتبة من النصارى، ولهؤلاء أعياد يعرفها المسلمون ويقدمون بها الفصول، الفصح وقت النيروز، والعنصرة وقت الحر، والميلاد وقت البرد، وعيد بربارة وقت الأمطار، وعيد الصليب وقت قطاف العنب، وعيد لد وقت الزرع، وهم يعتمدون الشهور الرومية المعروفة: كانون الثاني، شباط، آذار.. إلى آخره[١]..

ويأتي لزيارة القدس عبر هذه الأعياد وغيرها، من بلاد الروم الكثير من النصارى واليهود لزيارة كنائسهم هناك[٢]..

وقد بلغ عدد سكان القدس على أيام ناصر خسرو (منتصف القرن الخامس الهجري) عشرون ألف رجل، وقد تميزت المدينة ـ يومها ـ باتساع وارتفاع أبنيتها، وبأسواقها الجميلة المنسَّقة، وبكثرة صناعها، وقد بلطت كافة أراضيها بالحجارة، وسويت الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلت مسطحة، بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار[٣].

وتتمركز طائفة اليهود السامرة في نابلس، وتحج إلى جبل طور زيتا المطل عليها، وهم يزعمون أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح إسماعيل فيه،

---

(١) أحسن التقاسيم، ص ١٨٢.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وعندهم في التوراة أن الذبيح إسحاق، ويزعم أهل بيت المقدس أنه لا يوجد سامري في غير نابلس، وكان للسامرة في نابلس مسجد كبير زعموا أنه القدس، وأن بيت المقدس المعروف ملعون عندهم، حتى إذا اجتاز عليه أحدهم أخذ حجراً فرجمه. ويتهمهم سائر اليهود بأنهم مبتدعة أو كفار[(١)]. ولهذه الطائفة توراة تخصُّهم غير تلك التي بيد بقية اليهود أو النصارى، وهم ينفردون عن اليهود الآخرين بإنكار نبوة من بعد موسى عليه السلام ما عدا هارون، ويخالفونهم في استبدال بيت المقدس، إذ يستقبلون طور نابلس زاعمين أنه هو الذي كلم الله موسى عليه السلام، ويقرون أن الله تعالى هو الذي أنقذ بني إسرائيل من فرعون ونجاهم من الغرق، ويقولون: إنه نصب طور نابلس للمتعبد[(٢)].

وسكان فلسطين أهل سنة وجماعة، يدين معظمهم بالمذهب الشافعي، وفيما عدا بعض القضاة من الأحناف فإننا لا نكاد نعثر إلَّا على قلة منهم في المدن والقرى، كما لا نكاد نعثر على مالكي ولا داودي. ويكثر الأشعريون في طبرية كما يتواجد الشيعة فيها وفي عدد من أحياء نابلس، ويتمركز النصيرية في السامرة، أما المجوس والصابئة فلا وجود لهم[(٣)].

ثمة ملاحظة أخيرة قد يحسن أن يختم بها هذا العرض الموجز؛ وهي أن التعامل مع معطيات الأدب الجغرافي العربي يقود إلى حقيقة مهمة وهي تضاؤل الحضور اليهودي في فلسطين عبر العصور الإسلامية، ففيما عدا الإشارات الغزيرة عن الآثار الدينية اليهودية جنباً إلى جنب مع آثار الأديان

---

(١) ياقوت: معجم ٣/ ٥٥٧، لابن عبد الحق: مراصد ٢/ ٢١٤، الاصطخري: مسالك ص ٥٨، الإدريسي: نزهة ص ٢، الهروي: الإشارات ص ٣٤، القزويني: آثار ص ١٨٤، أبو الفداء: تقويم ص ٢١٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/ ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق نفسه: ٤/ ١٥٠، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٩، اليعقوبي: بلدان ص ٣٢٧، ناصر خسرو: سفرنامة ص ١٧.

السماوية الأخرى، فإننا لا نكاد نجد ثقلاً بشرياً لليهود في الحياة الفلسطينية. . والإشارات القليلة التي ترد عنهم لا تنفي هذه المقولة، بل تؤكدها في معظم الأحيان، لأنها تطرح أرقاماً محدودة إلى حد كبير لا تكاد تقارن بأعداد الغالبية العظمى من سكان البلاد المسلمين.

هناك إشارة الدمشقي إلى طائفة السامرة اليهودية التي يقول فيها: «إنه لا يوجد في بلد من البلدان من السامرة ما يوجد منهم بنابلس، ويقولون: إنهم لا يبلغون في بلد منهم الألف أصلاً»[١] . . .

وهناك إشارة الرحالة الأندلسي بنيامين التطيلي إلى وجود مئتي يهودي في عكا[٢] . . . وهذا الأخير رغم كونه يهودياً، ورغم أن رحلته انصبت بالدرجة الأولى على تدوين إحصائيات عن عدد اليهود المنتشرين في المشرق، فإنه لا يقدم لنا عبر رحلته في فلسطين غير هاتين المئتين من اليهود. .

وابن جبير عندما يتحدث عن النشاط التجاري المزدحم في مرفأ عكا يصفه بأنه مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق[٣]، ولا يشير بشيء إلى اليهود رغم حذقهم المعروف في ميدان التجارة.

ولا ننسى هنا بطبيعة الحال ـ إشارة المقدسي ـ آنفة الذكر ـ إلى أن أكثر الصباغين والصيارفة والدباغين كانوا على عهده من اليهود، ولكن ذلك لا يقف دليلاً على اتساع قاعدتهم العددية بين سكان فلسطين، فأكثر الصاغة في العراق إلى عهد قريب ـ وعلى سبيل المثال ـ كانوا من الصابئة إلَّا أنهم لا يعْدون أن يكونوا أقلّية ضئيلة جداً بالمقارنة مع سائر العناصر والفئات الأخرى.

---

(١) نخبة، ص ٢٠١.
(٢) رحلة، ص ٩٣.
(٣) رحلة، ص ٢٥٨ - ٢٨٦.

وفضلاً عن هذا فإننا عبر القرون العديدة التي تجول فيها الرحالة والجغرافيون وقدموا معطياتهم، لا نكاد نعثر على أية إشارة عن قيام فتنة دينية بين المسلمين واليهود في فلسطين، ولا حتى إلى ما يوحي بنشوب توتر أو سوء تفاهم بين الجماعتين، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدلُّ ـ من جهة ـ على انعدام ثقل اليهود في الحياة الفلسطينية بحيث إنهم لا يشكلون تياراً سكانياً له خطره وتحدياته. . . ويدل ـ من جهة أخرى ـ على ما اشتهر به المسلمون من سماحة في تعاملهم مع أبناء الأديان السماوية الأخرى، كما علمهم كتابهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، وكما عرفهم تاريخ المذاهب والأديان عبر القرون[١]. و ليس أدل على هذا الانفتاح وعدم التشنج على الأديان الأخرى، من تركيز جغرافيينا ورحالتنا اهتمامهم على كافة المنشآت والآثار الدينية، سواء أكانت نصرانية أم يهودية، ومن الحديث عنها بنفس القدر من الإعجاب والتكريم والمحبة.

إن ثمة رواية يحكيها لنا الدمشقي قد تكون أدل ما نختم به هذه الملاحظات: «يقال: إنه إذا اجتمع في طريق (واحد) مسلم ويهودي وسامري ونصراني، رافق السامري المسلم»[٢].



(١) انظر على سبيل المثال: ياقوت: معجم ١/ ٤٢٢، ابن عبد الحق: مراصد ١/ ١٠٨، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٨، أبو الفداء: تقويم ص ٢٤١.
(٢) نخبة، ص ٢٠١.

مصادر البحث

القسم الأول:

١ ـ المخطوطة :

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤هـ).

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (دار الكتب المصرية رقم ١١١٣).

ابن دقماق: صارم الدين بن إبراهيم بن أيدمر (ت ٨٠٩هـ).

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢).

الغياث: عبد الله بن فتح الله البغدادي (كان حياً سنة ٨٩٠هـ).

- التاريخ الغياثي (مكتبة معهد الدراسات العليا الإسلامية ـ بغداد).

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المصري (ت ٩٠٧هـ).

- تاريخ الدول والملوك (دار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧).

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ).

- السلوك لمعرفة دول الملوك (دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤).

٢ ـ المطبوعة :

ابن الأثير: عز الدين بن علي الجزري (ت ٦٣٠هـ).

- الكامل في التاريخ، دار الطباعة، القاهرة - ١٢٩٠هـ.

ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي المصري (٩٣٠هـ).

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الأميرية، القاهرة - ١٣١١هـ.

ابن تغري بردي:

- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٢٩ - ١٩٥٦م (سلسلة تراثنا).

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت - ١٩٥٦ - ١٩٥٩م.

رشيد الدين: فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨هـ).

- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت ورفاقه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٩٦٠م (عن الطبعة التي نشرها كاترمير).

الرمزي: م. القيصري (ت ١١٣٠هـ).

- تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمية والحسينية، أورنبورغ - ١٣٢٥هـ.

ابن الشحنة: محمد الحلبي المصري (ت٩٢١هـ).

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٩م.

ابن شداد: عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ).

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم حلب، تحقيق دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق - ١٩٥٣م.

ابن صصرى: محمد بن محمد (كان حياً فيما بعد ٨٠٠هـ).

- الدرة المضية في الدولة الظاهرية، تحقيق د. وليم. م. برنر، جامعة كاليفورنيا - ١٩٦٣م.

ابن العبري: غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ).

- تايخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - ١٩٨٠م.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ).

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي دمشق - ١٩٥٤م.

ابن عربشاه: شهاب الدين أحمد الدمشقي (ت ٨٥٤هـ).

- عجائب المقدور في أخبار تيمور، المطبعة العثمانية، القاهرة ١٣٠٥هـ.

ابن العماد: عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة المقدسي، القاهرة ١٣٥٠هـ.

الغزي: كامل بن حسين بالي (١٢٧١هـ).

- نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب - ١٣٤٢هـ.

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ).

- المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشاهانية، القسطنطينية - ١٢٨٦هـ.

ابن الفرات:

- تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت - ١٩٤٢م.

ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).

- ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء، بيروت ١٩٠٨م.

المقريزي:

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٣٦م.

ابن منقذ: أسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ).

- كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون - ١٩٣٠م.

اليونيني: موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦هـ).

- ذيل مرآة الزمان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر الدكن ـ ٩٥٤ ـ ١٩٦١م.

الإدريسي: أبو عبد الله محمد الشريف (ت ٥٦٠هـ).

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غويه، ليدن - ١٨٦٦م.

الاصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ).

- مسالك الممالك، ليدن - ١٩٢٧م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٧٩هـ).

- تحفة النظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر ـ دار بيروت - ١٩٦٤م.

التطيلي: بنيامين بن يونة الأندلسي (ت ٥٦١-٥٦٩هـ).

- رحلة بنيامين، ترجمه عن الأصل العبري عزرا حداد، المطبعة الشرقية بغداد ـ ١٩٤٥م.

ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٥٧٨-٥٨٠هـ).

- رحلة ابن جبير، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٠٨م.

ابن الحسين: إسحق.

- آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، روما ـ ١٩٢٩م.

الحنبلي: مجيرالدين عبد الرحمن بن محمد.

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الوهبية، القاهرة ـ ١٨٦٦م.

ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي (ت ٣٤٠هـ).

- كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت.

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله (ت في حدود سنة ٣٠٠هـ).

- كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، ليدن ـ ١٨٨٩م.

الدمشقي: شمس الدين محمد الأنصاري الملقب بشيخ الربوة (ت ٧٢٧هـ).

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصورة عن طبعة ليبزك ـ ١٩٢٣م.

الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ).

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق ريفيس، باريس ـ ١٨٩٤م.

ابن عبد الحق: صفي الدين (ت ٧٣٩هـ).

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق جرينبول، ليدن ـ ١٨٥٠م.

العمري: أبو العباس شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ).

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٢٤م.

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ).

- تقويم البلدان، تحقيق رينود ودي سلين، باريس ـ ١٨٤٠م.

ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد الهمذاني (ت ٣٦٥هـ).

- كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن ـ ١٨٨٥م.

قدامة بن جعفر: أبو الفرج الكاتب البغدادي (ت ٣٢٠هـ).

- نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، تحقيق دي غويه، ليدن ـ ١٨٨٩م.

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ).

- آثار البلاد وأخبار العباد، تحقيق وستنفلد، غوتنجن ـ ١٨٤٩م.

المقدسي: أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٧٥هـ).

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، ليدن ـ ١٩٠٦م.

النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني (١٦٨٩م).

- الحضرة السنية في الرحلة القدسية (عن مخطوطة المتحف الفلسطيني).

ناصر خسرو: الفارسي (ت ٤٨١هـ).

- سفرنامة، ترجمه عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ـ ١٩٤٥م.

الهروي: علي بن الحسين (ت ٦١١هـ).

- الإشارات إلى معرفة الزيارات (عن نسخة المخطوطة، المصورة في المتحف الفلسطيني).

ابن الوردي: أبو حفص عمر (ت ٧٤٩هـ).

- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة الشيخ عثمان عبد الرزاق، القاهرة ـ ١٣٠٣هـ.

ياقوت: شهاب الدين عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ).

- معجم البلدان، تحقيق وستنفلد، ليبزك، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣م، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، تحقيق وستنفلد، غوتنجن ١٨٤٦م.

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ).

- كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن ـ ١٨٩١م.



فهرس الموضوعات


تم بحمد الله
@Ahmedyassin90


@Ahmedyassin90

تصوير

أحمد ياسين

تويتر

@Ahmedyassin90

@Ahmedyassin90